أنطوان دو سانت - أكزوبيري



مع رسومات المؤلف



المركز الثقافي العربي



أنطوان دو سانت-أكزوبيري



الأمير الصغير

مع رسوم المؤلف







الكتاب

الأمير الصغير

تأليف

أنطوان دوسانت-إكزوبيري

ترجمة

محمد التهامي العماري

الطبعة

الثانية، 2013

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-520-5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ــ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 307651 - 0522 303339
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ــ لبنان

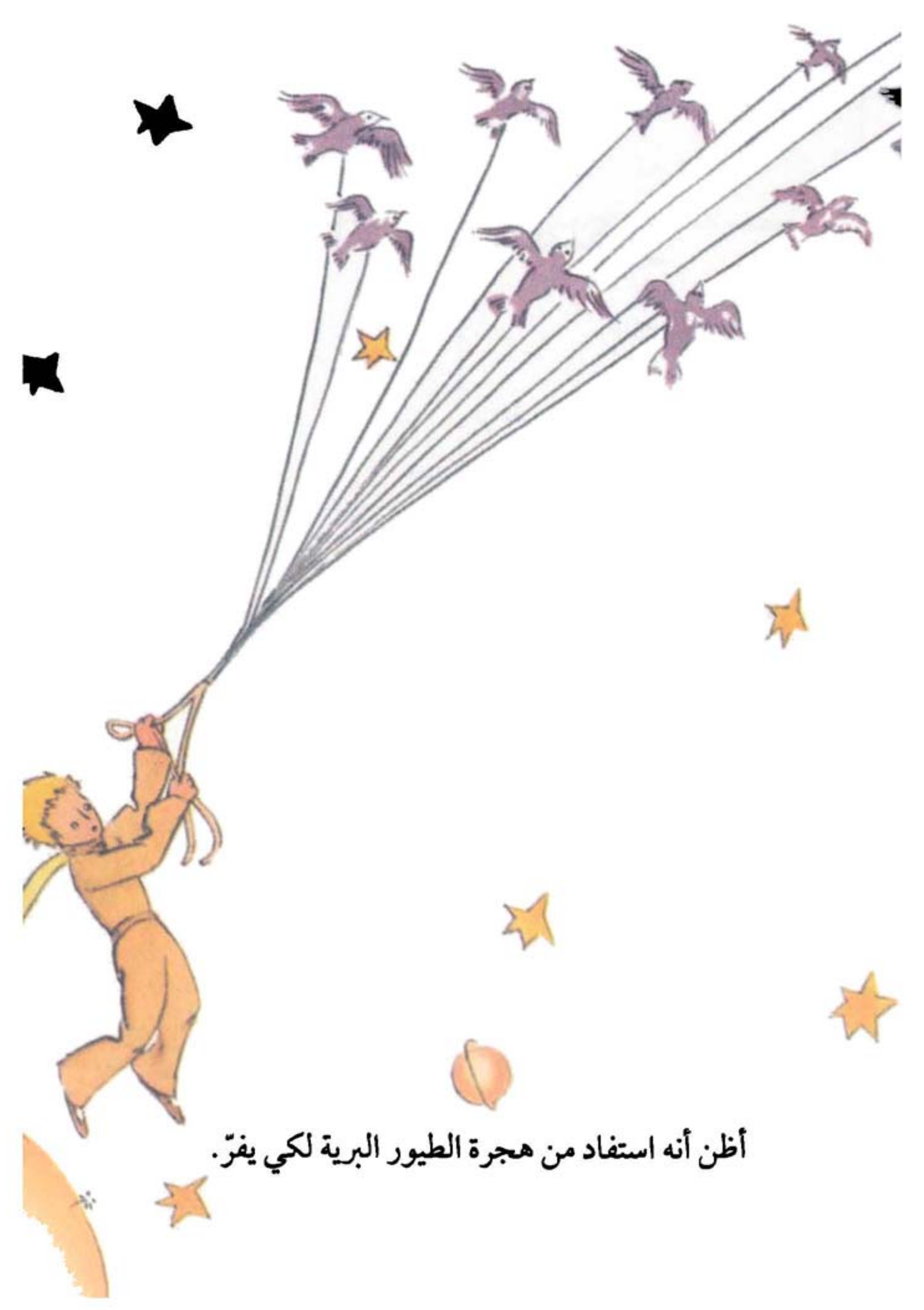
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 - 01 352826
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

طبع هذا الكتاب بمساهمة
من الملحقية الثقافية
لسفارة فرنسا في المغرب

الأمير الصغير

ترجمة

محمد التهامي العماري

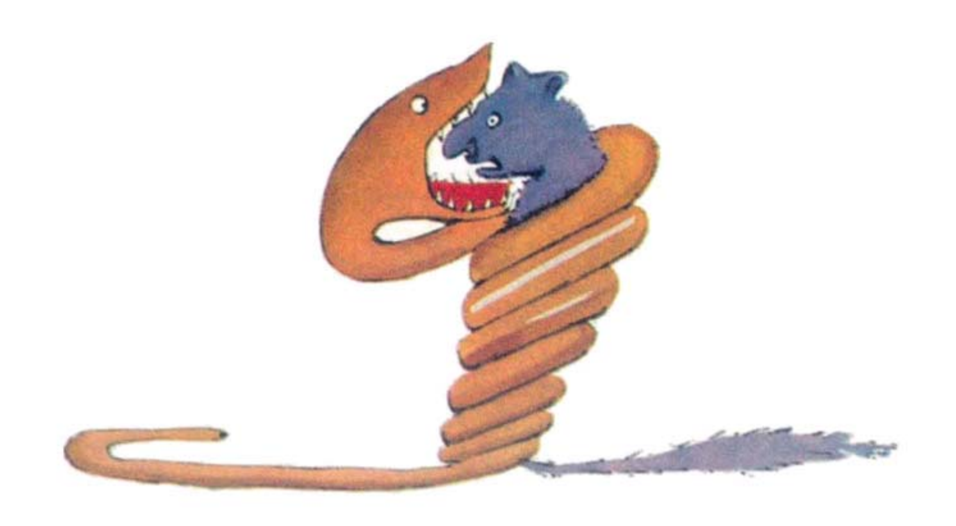


أظن أنه استفاد من هجرة الطيور البرية لكي يفرّ.

إلى ليون ويرث.

أقدم للأطفال اعتذاري إذ أهدي هذا الكتاب لشخص راشد. ولدي في ذلك عذر معقول: فهذا الراشد هو أعزّ صديق لي على هذه البسيطة. ولي عذر غيره: هذا الراشد يستطيع فهم كل شيء، بما في ذلك كتب الأطفال. ثم لدي عذر ثالث: وهو أن هذا الشخص يقطن بفرنسا حيث يقاسي الجوع والبرد، ويحتاج للمواساة. فإذا كانت كل هذه الأعذار غير كافية، فإني أهدي هذا الكتاب للطفل الذي كانه ذلك الراشد. فكل الراشدين سبق وأن كانوا أطفالا (رغم أن قلة منهم فقط تتذكر ذلك!). فلأصوّب إذن إهدائي:

إلى ليون ويرث
لما كان ولدا صغيرا.



I

لما كنت في السادسة من عمري، رأيت مرة صورة رائعة لثعبان البوا في كتاب يتحدّث عن الغابة العذراء بعنوان «قصص حقيقية». كانت الصورة تمثل ثعبان البوا وهو يبتلع وحشا، وإليك نسخة من الرسم.

وقيل في الكتاب: «تبتلع ثعابين البوا فريستها كاملة ودون مضغ. إثر ذلك تصير عاجزة عن الحركة، فتنام ستة أشهر هي مدّة هضمها.»

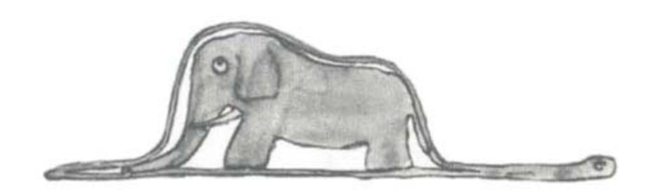
فكّرت كثيرا إذن في مغامرات الأدغال، فتسلّحت بقلم ملوّن، ونجحت بدوري في خطّ رسمي الأول، رسمي رقم 1. وجاء بهذه الصورة:



عرضت تحفتي على أشخاص راشدين، وسألتهم ما إذا كان رسمي يخيفهم.

أجابوني: «لماذا تخيفنا قبّعة؟»

لم يكن رسمي يمثل قبّعة، بل ثعبان بوا وهو يهضم فيلا. رسمت إذن الثعبان من الداخل حتّى يتمكن الراشدون من فهم ما رسمت. لكنهم ظلّوا في حاجة إلى توضيحات. وقد اتّخذ رسمي رقم 2 هذا الشكل:



نصحني الراشدون بأن أترك جانبا رسوم ثعبان البوا، سواء أكانت من الداخل أو الخارج، وأن أهتمّ بالأحرى بالجغرافيا والتاريخ والحساب والنحو. وهكذا تخلّيت، وأنا ابن السادسة، عن مستقبل رائع في فن الرسم. فقد أحبطني فشل رسمي رقم 1 ورسمي رقم 2. ذلك أن الراشدين لا يفهمون شيئا لوحدهم أبدا؛ وإنه لمتعب للصغار أن يواظبوا على تقديم التوضيحات لهم بصورة دائمة.

اضطررت إذن لاختيار مهنة أخرى، فتعلّمت قيادة الطائرات. طرت في مناطق متعدّدة من العالم، وأفادتني الجغرافيا كثيرا حقّا. كنت أستطيع التمييز، بلمحة بصر، بين الصين وأريزونا، وهو أمر بالغ الأهمية لاسيما إذا ضل الطيّار طريقه ليلا.

وهكذا ربطت خلال حياتي اتصالات عديدة مع كثير من الناس الجادّين. عشت لفترة طويلة بين الراشدين، وراقبتهم عن كثب، ولم يغيّر ذلك رأيي فيهم.

لمّا كنت أصادف أحدهم، وأتوسم فيه قدرا من الذكاء، كنت أختبره برسمي رقم 1 الذي تعمّدت الاحتفاظ به. كنت أودّ معرفة ما إذا كان فطنا بالفعل. لكنه كان يجيبني دائما: «إنها قبعة». فلا أحدّثه إذن لا عن ثعبان البوا ولا عن الغابة العذراء ولا عن النجوم. وكنت أجاريه، فأحدّثه عن لعبة البريدج أو الكولف، أو عن السياسة أو ربطات العنق. ويحسّ هذا الشخص الراشد بالسرور لأنه تعرّف على إنسان بهذا القدر من الحصافة...

II

وبهذا عشت وحيدا، ليس لي أحد أكلّمه حقا، إلى أن تعطّلت طائرتي يوما بالصحراء قبل ستّ سنوات. تكسّر شيء ما في محركها. وبما أنّه لم يكن معي لا ميكانيكي ولا ركّاب، وصممت على إصلاح هذا العطب الصعب بنفسي. كان الأمر بالنسبة لي مسألة حياة أو موت، إذ كانت كمية الماء التي معي تكفي بالكاد لثمانية أيام.

قضيت الليلة الأولى إذن على الأرض على بعد ألف ميل من أقرب منطقة مأهولة. كنت أشدّ عزلة من غريق على متن طوف في عرض المحيط. ولكم أن تتصوروا دهشتي عند مطلع الفجر لمّا أيقظني صوت خافت قائلا:

«-ارسم لي خروفا من فضلك!

-ماذا؟

-ارسم لي خروفا...»

انتفضت كما لو أصابتني صاعقة، وفركت عينيّ جيدا، ومضيت أبحلق

حولي، فرأيت طفلا صغيرا رائعا يتأمّلني باهتمام. إليكم أفضل بورتيريه نجحت في رسمه له لاحقا.

لكن رسمي بالطبع أقلّ جاذبية من النموذج الأصلي، وليس ذلك تقصيرا منّي. فقد أحبط الراشدون مسيرتي كرسام لّما كنت في السادسة من العمر، فلم أتعلّم الرسم، باستثناء رسم ثعبان البوا من الداخل والخارج.

نظرت إذن إلى ذلك الشبح بعينين مفتوحتين على اتساعهما من أثر الدهشة. لا تنسوا أنّني كنت أبعدُ بألف ميل عن أقرب منطقة مأهولة. بيد أنّ ذلك الطفل لم يكن يبدو تائها، كما لم يكن يظهر عليه تعب ولا جوع ولا عطش ولا خوف. لم يبد عليه أنه طفل تائه وسط الصحراء، بعيدا عن المناطق المأهولة بألف ميل. ولّما انحلّت عقدة لساني، قلت له:

«-ولكن... ماذا تفعل هنا؟»

كرّر على مسامعي بصوت خافت وبنبرة جادّة:

«- من فضلك... ارسم لي خروفا...»

لما يكون اللغز مدهشا، لا نجرؤ على العصيان. فمهما بدا لي ذلك عبثيا وأنا أبعد بألف ميل عن أقرب منطقة مأهولة، أخرجت من جيبي ورقة وقلم حبر. بيد أني ما لبثت أن تذكرت أنني درست الجغرافيا والتاريخ والحساب والنحو، وقلت للطفل (بنبرة تشي بشيء من الحدة) إنني لا أتقن الرسم. فأجابني:

«-لا ضير، ارسم لي خروفا.»

وبما أنني لم يسبق لي أن رسمت خروفا قطّ، خططت له أحد الرسمين اللذين كان بمقدوري رسمهما.



إليكم أفضل بورتيريه نجحت في رسمه له لاحقا.



رسم ثعبان البوا من الداخل، وذهلت وأنا أسمعه يجيبني:

«-لا، لا، لا أريد فيلا داخل ثعبان بوا. ثعبان البوا خطير، والفيل ضخم. أما بالنسبة إلي، فأنا أطلب شيئا صغيرا جدا. أنا في حاجة إلى خروف. ارسم لي خروفا.»

ورحت أرسم.

نظر باهتمام، ثم قال:

«-كلا! هذا خروف مريض جدا. ارسم آخر.»

وتابعت الرسم، فابتسم صديقي بلطف وتسامح:

«-انظر جيدا. هذا ليس خروفا، إنه كبش. إنه أقرن...»

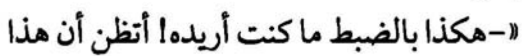
ومرة أخرى عدت أرسم: لكن رسمي رُفض مثلما رُفض الرسمان السابقان.

«-هذا طاعن في السن. أنا أريد خروفا لكي يعيش طويلا.»

عيل صبري إذن، لأنني كنت أستعجل الشروع في إصلاح المحرك، خربشت هذا الرسم:

«-هذا هو الصندوق. الخروف الذي تطلب موجود بداخله.»

لكنّي دهشت برؤية وجه حكَمي الصغير يستبشر:



«-هكذا بالضبط ما كنت أريده! أتظن أن هذا الخروف سيحتاج لكمية كبيرة من الكلأ؟



-لماذا؟

-لأن بيتي صغير للغاية...

-سيكون كافيا بكل تأكيد. لقد أعطيتك خروفا صغيرا جدّا.»

وأحنى برأسه على الرسم:

«-هو ليس بالصغر الذي ذكرت... انظر، لقد نام!»

وهكذا تعرفت على الأمير الصغير.

III

احتجت لوقت طويل حتى أعرف المكان الذي جاء منه. فالأمير الصغير الذي كان يمطرني بسيل من الأسئلة، بدا كما لو أنه لا يسمع قطّ أسئلتي. وما كشف لي هذه الحقيقة هي بعض الكلمات التي كانت تُلفظ بالصدفة من حين لآخر. وهكذا، حين أبصر للمرة الأولى طائرتي (لن أرسم طائرتي، لأن رسمها شديد التعقيد بالنسبة لي) سألني:

«-ما هذا الشيء؟

-هذا ليس شيئا. إنه يطير. إنها طائرة، طائرتي.»

وكنت فخوراً بأن أخبره بأنّي طيّار، فهتف:

«- كيف؟ أسقطتَ من السماء!

أجبته بتواضع: نعم.

-إنه شيء غريب!...»

وانفجر الأمير الصغير بضحكة بديعة

أغاظتني كثيرا. فأنا أرغب في أن تؤخذ مصائبي على محمل الجد. ثم أضاف:

«-إذن، فأنت أيضا أتيت من السماء! من أي كوكب أنت؟»

وسرعان ما عنّت لي بارقة في لغز حضوره، فسألته بغتة:

«-أنت قادم إذن من كوكب آخر؟»

لكنّه لم يجب، واكتفى بأن هزّ رأسه ببطء وهو يحدّق في طائرتي:

«-حقّا، لا يمكن أن تكون أتيت من بعيد على متن هذه الطائرة...»

وغرق في حلم دام طويلا، ثم أخرج من جيبه خروفي، وراح يتأمل كنزه باستغراق.

ولكم أن تتصوروا كم شغلني ما أسرّ لي به عن «الكواكب الأخرى». وسعيت إذن إلى معرفة المزيد، فرحت أساله:

«-من أين أتيت أيها الفتى؟ أين موطنك؟ إلى أين ستأخذ خروفي؟»

أجابني بعد تأمّل صامت:

«-أجمل شيء فيما أعطيتني هو أن الصندوق سيكون بمثابة بيت له في الليل.

-بالطبع، وإذا بقيت لطيفا، سأعطيك حبلا أيضا لكي توثقه به نهارا، وسأعطيك وتدا كذلك.»

وبدا كما لو أن الملاحظة صدمته:

«-أوثقه به؟ ما أغربها من فكرة!

-ولكن، إذا لم توثقه سيذهب إلى أي مكان، وسيشرد.»

وانفجر صاحبي ضاحكا وهو يقول:

«-ولكن، أين عساه يذهب!



الأمير الصغير فوق الكويكب ب 612.

-إلى أيّ مكان، سينطلق ويسير إلى الأمام...»

وعندها علّق الأمير الصغير بنبرة جادة:

«-لا ضير في ذلك، فبيتي ضيق للغاية!»

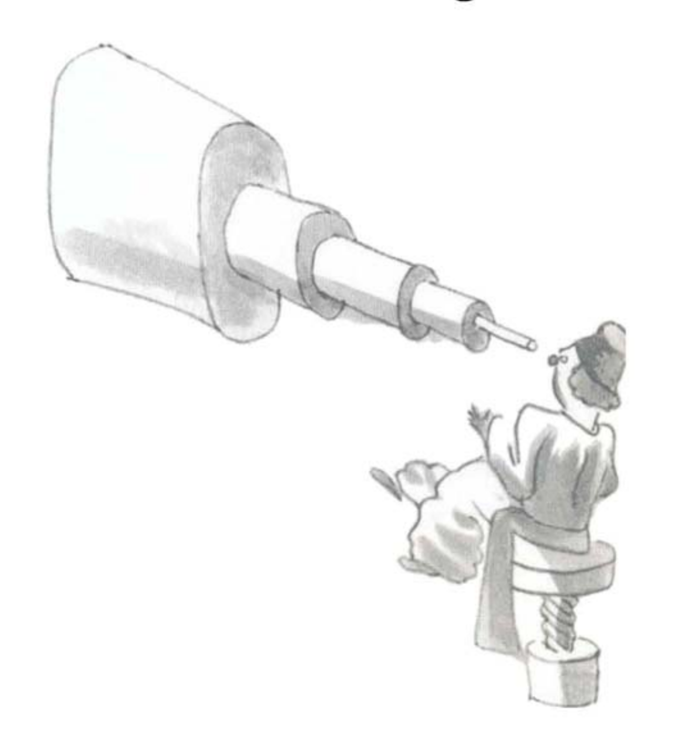
ثم أضاف بنوع من الكآبة ربّما:

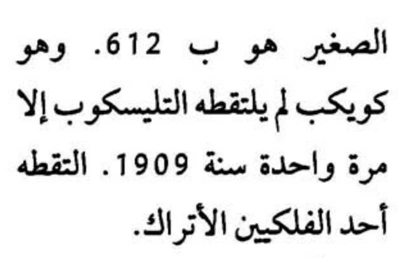
«-إذا سار المرء إلى الأمام، فلن يكون بوسعه أن يمضي بعيدا...»

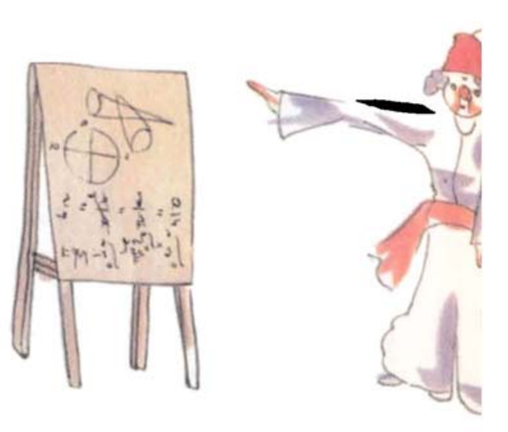
IV

وبهذا اطلعت على أمر ثان بالغ الأهمية: إنّ كوكبه بالكاد أكبر من بيت! لم يكن ذلك ليثير استغرابي. كنت أعلم أنه توجد مئات الكواكب الأخرى غير الكواكب الكبرى التي حظيَت بأسماء كالأرض والمشتري والمريخ والزهرة. بعض تلك الكواكب الصغيرة أصغر من أن يشاهد أحيانا بالمنظار. وإذا ما اكتشف فلكيٌّ أحدها، يمنحها رقما، فيكون بمثابة اسم لها. يدعوها مثلا «الكويكب رقم 325».

لدي أسباب معقولة لكي أعتقد بأن الكويكب الذي جاء منه هذا الأمير





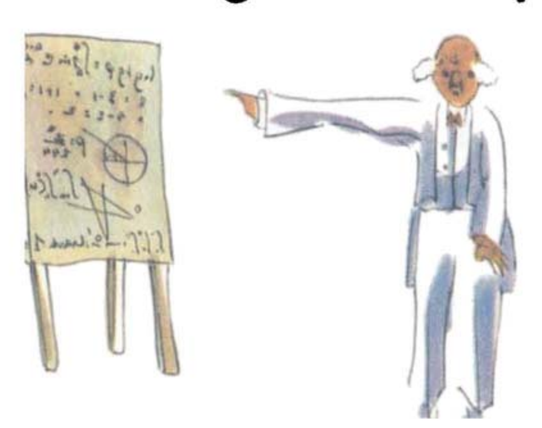


الصغير هو ب 612. وهو كويكب لم يلتقطه التليسكوب إلا مرة واحدة سنة 1909. التقطه أحد الفلكيين الأتراك.

وقدّم ذلك الفلكي حينئذ خلال مؤتمر عالمي للفلك عرضا مفصّلا عن اكتشافه، لكن لم يصدّق كلامه أحد بسبب زيّه. ذلك أن الراشدين يتصرفون هكذا.

ومن حسن حظ الكويكب ب 612، أن ديكتاتوراً تركياً فرض على شعبه تحت التهديد بالإعدام أن يلبسوا على شاكلة الأوروبيين. وقد أعاد الفلكيّ عرض اكتشافه سنة 1920 وهو يرتدي لباساً أنيقاً، فاقتنع الجميع برأيه.

وأنا إنما قصصت عليكم هذه التفاصيل حول الكويكب ب 612، وأسررت لكم برقمه، بسبب الراشدين. فهم يحبّون الأرقام. وحين تحدّثهم عن صديق جديد، فهم لا يسألونك قطّ عن الأمور الجوهريّة. لا يقولون لك أبدا: «كيف هي رنّة صوته؟ ما هي ألعابه المفضلة؟ هل يجمع الفراشات؟»، بل يسألونك: «كم عمره؟ كم عدد إخوته؟ ما وزنه؟ كم دخل أبيه؟». وعندها فقط يظنون أنهم عرفوه.



وإذا قلت للراشدين «إنني رأيت منزلا جميلا من القرميد الأحمر، تزيّن نوافذه الرياحين، ويحطّ على سقفه الحمام...» فإنهم لا يتمكنون من تخيّل ذلك المنزل. ينبغي أن تقول لهم: «رأيت منزلا يساوي مائة ألف فرنك.» فيهتفون حينها: «ما أجمله!»

وهكذا إذا قلت لهم: «إن الدليل على أنّ الأمير الصغير وُجد فعلا هو أنه كان رائعا وضحوكا، وأنه كان يريد خروفا، وأن المرء إذا كان يريد خروفا، فذلك دليل على وجوده»، هزّوا أكتافهم، وتعاملوا معك كما لو كنت طفلا! لكن لو قلت لهم: «إنه قادم من الكويكب ب 612»، فإنهم سيقتنعون، وسيكفّون عنك أسئلتهم. هم هكذا، ولا ينبغي أن تلومهم على ذلك. على الأطفال أن يكونوا متسامحين مع الراشدين.

لكننا، نحن من نفهم الحياة، نسخر من الأرقام! كان بودّي أن أبدأ هذه القصة على شاكلة الحكايات الخرافية. كان بودي أن أقول:

«كان يا ما كان في قديم الزمان أمير يسكن كوكبا بالكاد يكبره بقليل، وكان بحاجة إلى صديق...» بالنسبة لأولئك الذين يفهمون الحياة ستبدو القصة بهذه الصورة أكثر واقعية.

ذلك أنني لا أحبّ أن يقرأ كتابي باستخفاف. فسرد هذه الحكايات يشعرني بكثير من الأسى. ها قد مضت ست سنوات على رحيل صديقي حاملا خروفه. وإذا كنت أحاول وصفه هنا، فذلك حتّى لا أنساه. وإنه لمن المحزن أن ينسى المرء صديقا، فليس كل الناس لهم أصدقاء. كان بالإمكان أن أصير مثل الراشدين الذين لا يهتمّون إلا بالأرقام. ولهذا السبب اشتريت علبة ألوان وأقلام. وإنه لمن الصعب الرجوع للرسم من جديد وأنا في هذا السن، لاسيما إذا لم تسبق للمرء محاولات غير رسم ثعبان بوا من الداخل

والخارج لمّا كان في السادسة من العمر!

سأبذل قصارى جهدي بالطبع لرسم بورتريهات تكون مقاربة للأمير الصغير قدر الإمكان، وأنا لست واثقا من النجاح في ذلك. ستأتي بعض رسومي مطابقة، وبعضها الآخر غير مطابق، كما أنني قد أخطئ أيضا في الحجم. فقد يبدو الأمير الصغير في بعض الصور أكبر مما يلزم، وفي أخرى أصغر. سيساورني التردد كذلك حول لون لباسه، وسأتوخّى اللون المناسب، فأصيب طورا، وأخطئ طوراً آخر. سأخطئ أخيرا في بعض التفاصيل الأهمّ، لكن عليكم أن تعذروني في ذلك. فصديقي لم يكن يقدّم لي توضيحات أبدا. كان يعتبرني ربّما مثله وإن كنت للأسف لا أستطيع رؤية الخراف داخل الصناديق. فأنا شبيه، ربما، بالراشدين. لعلّني قد أكون هرمت.

V

كنت أكتشف كل يوم شيئا جديدا عن الكوكب وعن الرحيل والسفر. وكان ذلك يتمّ على مهل، ويأتيني صدفة في معرض توارد الأفكار في ذهني. وهكذا تعرّفت في اليوم الثالث على مأساة شجر الباوباب.

وفي هذه المرة أيضا، كان ذلك بفضل الخروف، لأن الأمير الصغير سألني فجأة، كما لو أن شكّا خطيرا داخله:

«-أصحيح أن الخراف تأكل الشجيرات؟

-نعم، هذا صحيح.

-هذا أمر مُفرح!»

لم أفهم لماذا كان من المهمّ أن تأكل الخراف الشجيرات، لكن الأمير الصغير أردف قائلا:

«-وبناء عليه، فهي تأكل أيضا شجر الباوباب؟»

أثرت انتباه الأمير الصغير إلى أن شجر الباوباب لا يعدّ من الشجيرات، بل هو شجر ضخم بطول الكنائس، وأنه حتّى لو أحضر معه قطيعا من الفيلة، فلن تستطيع التهام شجرة باوباب واحدة.

أضحكت فكرة قطيع الفيلة الأمير الصغير، فقال:

«-ينبغي تكديس الفيَلة الواحد فوق الآخر...»

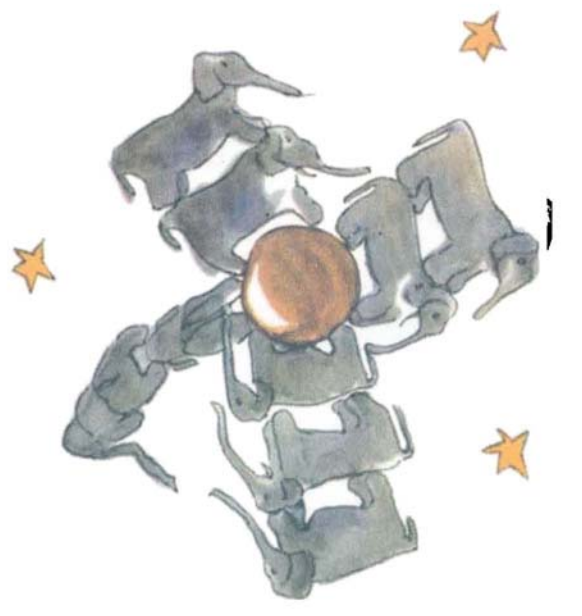
لكنه استدرك بحكمة:

«-قبل أن ينمو شجر الباوباب ، فهو يبدأ صغيرا.

-هذا صحيح! ولكن لماذا تريد أن تطعم خرافك شجيرات الباوباب؟»

أجابني: «ألا تعرف لماذا؟»، وكأن الأمر يتعلق بأمر بديهي. وكان عليّ أن أبذل جهدا ذهنيا كبيرا لأفهم المسألة بمفردي.

بالفعل، ففي كوكب الأمير الصغير، كما هو الأمر في كل الكواكب، كانت ثمّة أعشاب نافعة وأخرى ضارّة، وكان ثمّة بالتالي بذور الأعشاب النافعة وبذور الأعشاب الضارة؛ بيد أن البذور غير بادية للعيان. فهي تنام تحت التربة حتى يخطر لإحداها أن تستيقظ، فتتمطّى، وتدفع في البداية بخجل باتجاه الشمس شتلة ساحرة وغير مؤذية. فإذا تعلّق الأمر بشتلة فجل أو قصب،





يمكن تركها تنمو كما تشاء، أما إذا تعلق الأمر بنبتة ضارّة، فتنبغي المسارعة لاقتلاعها بمجرّد التعرف عليها. والحال أنّه توجد على كوكب الأمير الصغير بذور رهيبة... إنها بذور الباوباب، وقد كان تراب الكوكب ملوثا بها. فشجر الباوباب إذا لم يُقْتَلع وهو صغير، صار من المستحيل التخلص منه. فهي تملأ الكوكبَ، وتضرب بجذورها في ترابه. فإذا ما كان الكوكب

صغيرا، وكانت أشجار الباوباب كثيرة، فإنها قد تفجره.

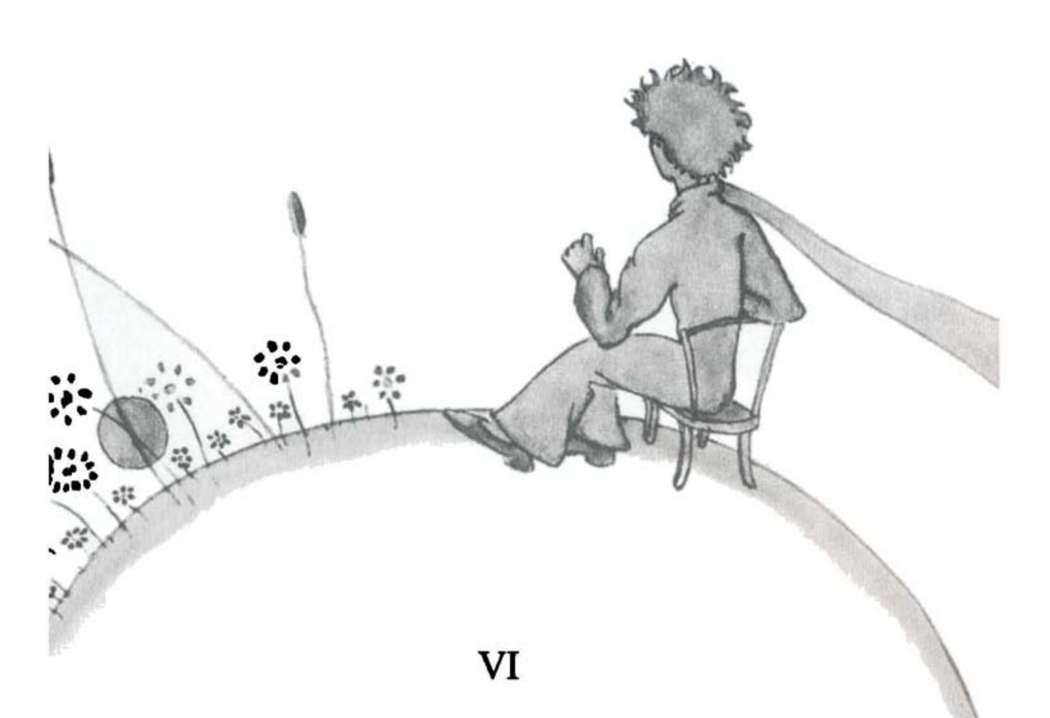
«إنها مسألة سلوك، قال لي الأمير الصغير فيما بعد. لما ينتهي المرء من تنظيف نفسه صباحا، ينبغي أن ينتقل إلى تنظيف الكوكب بعناية. ينبغي الحرص على اجتثاث شجر الباوباب بانتظام بمجرّد أن يتمّ تمييزها عن القصب، لأنهما يتشابهان كثيرا في صغرهما. إنه عمل مملّ، لكنه بالغ السهولة.»

وذات يوم نصحني بأن أعكف على إنجاز رسم جميل علّني أنجح فيه، وذلك حتى أرسّخ هذه الفكرة في أذهان أبناء موطني. «فإذا ما سافروا يوما، قال لي، قد يفيدهم ذلك. في بعض الأحيان، لا ضير في أن يؤجل المرء عمله، لكن إذا تعلق الأمر بالباوباب، فقد يكون ذلك كارثيا. لقد عرفت كوكبا يسكنه شخص كسلان، وأهمل ثلاث شجيرات...»

وبناء على إرشادات الأمير الصغير، رسمت هذا الكوكب. ورغم أنه لا يروقني أبدا أن أتحدث بلهجة الواعظ. لكن خطر الباوباب لا يُعرف عنه إلا القليل، وتهديده عظيم لحياة من قد يتيه على كويكب، ممّا اضطرّني، لأن أتخلى، ولو لمرّة واحدة، عن تحفّظي، فأقول: «أيها الأطفال، احذروا الباوباب!» وقد عملت بجدّ في ذلك الرسم حتّى أحذّر أصدقائي من خطر كان يحيق بهم منذ زمن بعيد من دون أن يعلموا به، مثلما لم أكن أنا أعلم. كان الدرس الذي تعلّمه يستحق العناء، ولعلكم ستتساءلون: لماذا لا توجد في هذا الكتاب رسوم في عَظَمة رسم الباوباب؟ الجواب بسيط. لقد حاولت، لكنني لم أفلح. ذلك أنني لما رسمت شجر الباوباب، كان يحفزّني شعور بالحاجة الملحة.



الباوباب.



VI

آه أيها الأمير الصغير! هكذا فهمت شيئا فشيئا حياتك الصغيرة الكئيبة. لمدّة طويلة لم تكن تسلّي نفسك بغير عذوبة غروب الشمس. اطّلعتُ على هذا التفصيل الجديد صباح اليوم الرابع، حينما قلت لي:

«-أحب غروب الشمس. هيا بنا لنشاهد الغروب...

-لكن علينا الانتظار...

-ماذا سننتظر؟

-انتظار أن تغرب الشمس.»

بدت عليك الدهشة في البداية، ثم ضحكت من نفسك، وقلت لي:

«-ما زلت أظن أنني بمنزلي!»

بالفعل، عندما يحلّ الظهر بالولايات المتحدة، وهو أمر يعرفه الجميع، تغيب الشمس عن باريس. ولمشاهدة الغروب، حسب المرء أن يكون قادرا على الذهاب إلى فرنسا في دقيقة واحدة. لكن فرنسا -للأسف- بعيدة للغاية. أما في كوكبك الصغير، فيكفي أن تنقل كرسيك بضع خطوات، وتشاهد الغسق متى شئت ذلك...

«-ذات يوم، رأيت الشمس تغرب أربعاً وأربعين مرة!»

وبعد برهة أضفت:

«-أتعلم، عندما يكون المرء شديد الحزن، فهو يحب الغروب...»

-إذن كنت حزينا يوم رأيت الشمس تغرب أربعاً وأربعين مرة؟»

لكن الأمير الصغير لم يجب.

VII

في اليوم الخامس، وبفضل الخروف دائما، انكشف لي سرّ حياة الأمير الصغير. سألني بغتة وبدون مقدمات كما لو أن الأمر نتيجة تفكير ملي، طويل وصامت في مشكلة مستعصية:

«-إذا كان الخروف يأكل الشجيرات، فلا بدّ أنّه يأكل أيضا الزهور؟

-الخروف يأكل كلّ ما يصادفه.

-حتّى الزهور ذات الشوك؟

-نعم، حتى الزهور ذات الشوك.

-فلأي شيء يصلح الشوك إذن؟»

لم أعرف بِمَ أجيب. كنت حينها منهمكا في فكّ برغيّ عصيّ في محرك

طائرتي. وكنت قلقا للغاية، لأنّه بدأ يتأكد لي أن العطب شديد الخطورة، وجعلني ماء الشرب الذي بدأ ينفذ أخشى ما هو أسوأ.

«-لأي شيء يصلح الشوك؟» سألني ثانية.

لم يكن الأمير الصغير يتنازل قطّ عن سؤال طرحه. كان البرغي قد أثار حفيظتي، فأجبت كيفما اتفق:

«-لا يصلح الشوك لشيء، إنها بذاءة خالصة من قبل الزهور!

-حسنا!»

لكنه بعد لحظة صمت، هتف بنبرة تشي بالامتعاض:

«-لست أصدّقك! إنّ الزهور ضعيفة وساذجة. هي تؤمّن نفسها بقدر مستطاعها. تظنّ نفسها رهيبة بشوكها...»

لم أجب بشيء، وفي تلك الأثناء قلت لنفسي: «إذا استمرّ هذا البرغيّ بالمقاومة، سأكسره بضربة مطرقة.»

ثم أفسد عليّ الأمير الصغير أفكاري: «أتظنّ أنت أن الزهور...

-كلا! كلا! لا أظن شيئا! لقد أجبتك كيفما اتفق، أنا مشغول بأمور خطيرة!»

حدّق في مذهولا.

«-أمور خطيرة؟»

راح ينظر إليّ وقد تناولت المطرقة بيدي وأصابعي مسودّة بالشحم، وأنا مكبّ على شيء كان يبدو له في منتهى البشاعة.

«-إنك تتكلّم مثل الراشدين!»

أشعرني ذلك بشيءٍ من الخزي.

ثم أضاف بنبرة قاسية:

«-أنت تخلط بين الأمور! لا تميّز شيئا!»

كان ساخطا حقّا. هزّ بعنف شعره الذهبي، وقال:

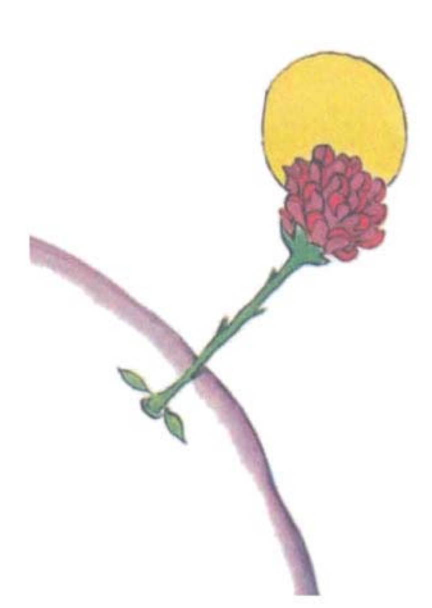
«-أعرف كوكبا به رجل قرمزيّ. لم يستنشق شذى زهرة قط، ولم يسبق له أن رأى نجمة أبدا. كما لم يسبق له أن أحبّ أحدا قط. لم يفعل شيئا آخر في حياته غير عمليات الجمع. يقضي يومه كاملا مثلك وهو يردد: أنا رجل جاد! أنا رجل جاد! ، وهذا يملؤه زهوا. لكنه ليس رجلا، إنه فطر!

-ماذا؟

-فطر!»

كان لون الأمير الصغير عندئذ قد شحب من فرط الغضب.

«-لقد مرّت ملايين السنين على الأزهار وهي تصنع الشوك، ومضت على الخراف ملايين السنين وهي تأكل الأزهار مع ذلك. أليس أمرا جديا السعي لفهم سبب إرهاق الزهور لنفسها في صنع شوك لا فائدة منه؟ أليست الحرب بين الزهور والخراف هامة؟ أليست أهم من عمليات الجمع التي يقوم بها رجل بدين أحمر؟ وإذا كنت أنا أعرف زهرة فريدة لا وجود لها في أيّ مكان غير كوكبي،



يستطيع خروف صغير أن يبيدها ذات صباح دفعة واحدة، من دون أن ينتبه لما يفعل، أليس هذا مهمّا!»

امتقع لونه، ثم أردف:

«-إذا كان ثمة شخص يحبّ زهرة لا توجد منها في ملايين النجوم غير عيّنة واحدة، فحسبه ليشعر بالسعادة أن ينظر إلى تلك النجوم، وسيقول في نفسه: «إن زهرتي توجد هناك في مكان ما...» أما إذا التهم الخروف الزهرة، سيكون الأمر بالنسبة إليه كما لو أن كلّ النجوم خبت فجأة! أليس هذا مهمّا!»

لم يستطع أن يضيف شيئا، وشرع فجأةً ينتحب. حلّ الليل، وكنت قد تركت أدواتي جانبا، وصرت لا أبالي بمطرقتي وبالبرغي، بالظمأ وبالموت. كان ثمة فوق نجمة ما، فوق كوكب ما، كوكبي الأرض، أمير صغير يحتاج للمواساة! فأخذته بين ذراعيَّ، ومضيت أهدهده وأنا أقول له: «الزهرة التي تعشق ليست في خطر... سأرسم كمامة للخروف، لخروفك... وسأرسم حاجزا واقيا لزهرتك... سأ...» ولم أعد أدري ما أقول. شعرت بنفسي أخرق. لم أكن أعرف كيف أصل إليه، وكيف ألحق به... إنه غامضٌ جداً بلد الدموع.

VIII

تعلّمت بسرعة التعرّف بشكل أفضل على هذه الزهرة. فقد كانت توجد دائما على كوكب الأمير الصغير زهور بسيطة، يزيّنها صف واحد من البتلات، لا تشغل حيزا كبيرا، ولا تزعج أحدا. فهي تظهر في العشب

ذات صباح، وتذوي في المساء. لكن هذه الزهرة نبتت ذات يوم من بذرة جُلبت من مكان ما، وراقب الأمير الصغير عن كثب هذه الغريسة التي لا تشبه الغرائس الأخرى. قد تكون نوعا جديدا من الباوباب، بيد أن النبته ما لبثت أن توقفت عن النمو، وشرعت تهيء زهرة. أحس الأمير الصغير، الذي كان يشهد نشوء برعم ضخم، أن شيئا خارقا سيخرج منه، لكن الزهرة لم تكفّ عن الاستعداد لتكون جميلة داخل ملجئها الأخضر. كانت تنتقي ألوانها بعناية، وتتزيَّ على مهل، وتقيس بتلاتها واحدة واحدة. لم تكن تريد أن تخرج مجعّدة مثل شقائق النعمان. لم تكن تريد الظهور إلا في أزهى بهائها. أجل! كانت بالغة التأنّق! دامت فترة زينتها العجيبة إذن أياما وأياما. ثم تجلّت ذات صباح عند شروق الشمس.

وبعد أن اشتغلت بمنتهى الدقة، قالت متثائبة:

«-بالكاد استيقظت... أستسمحكم... لم أمشّط شعري بعد...»

لم يستطع الأمير الصغير إذن السيطرة على إعجابه، فقال لها:

«-ما أجملك!

أجابت الوردة بلطف: لقد وُلدتُ أنا والشمس في وقت واحد، أليس كذلك...»

فكّر الأمير الصغير بأنّها لم تكن متواضعة تماما، لكنها كانت مثيرة!

ثم أردفت:

«-أظن أن وقت الإفطار قد حلّ، هل تتكرّم بالعناية بي...»

وراح الأمير الصغير وقد علاه الارتباك



يبحث عن مرشّة وعن ماء زُلال، ثم سقى الزهرة.

وهكذا عذّبته الزهرة بغرورها المتقلّب. فقد قالت يوما وهي تتحدّث إلى الأمير الصغير عن شوكاتها الأربع:

«-قد تأتي النمور شاهرة مخالبها!

-ليس على كوكبي نمور، اعترض الأمير الصغير. ثم إن النمور لا تأكل العشب.

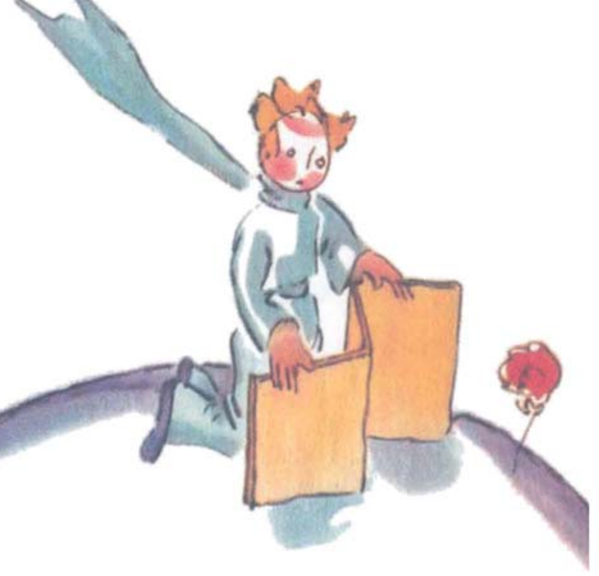
-لست عشبا، ردّت الزهرة بهدوء.

-عذرا...

-لست أخاف النمور، لكنّني أكره تيار الهواء. أليس عندك ستار؟»

«ليس من طبع الزهور أن تخشى تيار الهواء، علّق الأمير الصغير في سرّه. هذه الزهرة شديدة التعقيد...»

«-في المساء، ضعني تحت غطائي الزجاجي. الجوّ بارد عندكم، وغير مستقر. أما من حث أتيت...»



لكنها توقّفت عن الكلام. كانت بذرة لما جاءت، ومن ثمة لم تكن تعرف شيئا عن العوالم الأخرى. وحين شعرت بالخزي من افتضاح أمرها وهي تعدّ كذبة ساذجة، سعلت مرتين أو ثلاثاً حتى تثبت للأمير الصغير خطأه:

«-هات الستار؟...

-كنت أهمّ بإحضاره، لكنك كنت تتحدثين إليّ!»

فعادت للتظاهر بالسعال حتّى تشعره مع ذلك بالندم.

وهكذا ما لبث الشكّ أن تسرب لنفس الأمير الصغير رغم حبّه الصادق لها. فقد أخذ على محمل الجد كلمات لا أهميّة لها، وشعر بمنتهى الحزن.

«كان عليّ ألا أصغي لكلامها، اعترف لي يوما. لا ينبغي الإصغاء للزهور أبدا. ينبغي مشاهدتها واستنشاقها فقط. كانت تعطّر كوكبي، لكنني لم أكن أعرف كيف أستمتع بها. كان حريا بي أن أتسلى بقصة المخالب تلك عوض أن تزعجني...»

وأسرّ لي أيضا:

«لم أكن قادرا على فهم شيء! كان عليّ أن أحكم عليها من خلال أفعالها لا من خلال أقوالها. فقد كانت تعطّرني وتنيرني. ما كان علي أبدا أن أهرب. كان عليّ أن أدرك الحنان الكامن خلف حِيَلها. إن الزهور شديدة التناقض! لكنني كنت أصغر منْ أعرف كيف أحبّها.»

IX

أظن أنه استفاد من هجرة الطيور البرية لكي يفرّ. صبيحة انطلاقه، رتب كوكبه جيدا. نظّف مداخن براكينه النشيطة. كان له بركانان نشطان، وكانا يستعملهما لتسخين فطور الصباح. كان له أيضا بركان خامد. لكنه كان يردد دائما: «لا يمكن التنبؤ بما قد يحدث»؛ لذلك نظّف البركان الخامد أيضا، لأن البراكين إذا نظفت جيدا، اشتعلت بهدوء وانتظام، من دون أن تثور. فثورات البراكين أشبه ما تكون بنيران المواقد. بطبيعة الحال، نحن على الأرض أصغر من أن نستطيع تنظيف البراكين، ولهذا تسبِّب لنا كثيرا من المتاعب.

اجتثَّ الأمير الصغير أيضا آخر فسائل الباوباب. كان يظن أنه لن يعود أبدا، لكن كل هذه الأشغال المألوفة بدت له ذلك الصباح بالغة العذوبة. ولما سقى للمرة الأخيرة الزهرة، وتأهّب لوضعها في ملاذها تحت الغطاء الزجاجي، اكتشف أنه يرغب في البكاء. وقال للزهرة:

«-الوداع.»

لكنها لم تجبه.

«-الوداع،» قال مرة أخرى.

سعلت الزهرة، ولم يكن ذلك بسبب زكام أصابها. ثم قالت له أخيرا:

«-كنت غبيّة. أطلب منك الصفح. احرص على أن تكون سعيدا.»

فاجأه عدم لومها له، وبقي هناك حائرا وهو يرفع الغطاء الزجاجي في الهواء. لم يفهم سرّ هذا اللطف الهادئ.



نظّف مداخن براكينه النشيطة.

«-أجل، أنا أحبّك، قالت له الزهرة. لم تدرك ذلك بسبب خطئي، وهو أمر لا أهمية له. لكنك كنت أكثر غباء منّي. احرص على أن تكون سعيدا... دَع عنك هذا الغطاء الزجاجي، لا أريده.

-ولكن الريح...

-لست مزكومة إلى هذا الحد... سينعشني هواء الليل البارد، فأنا زهرة.

-ولكن الوحوش...

-إن شئت معرفة الفراشات، عليّ أن أتحمّل يرقتين أو ثلاث. يبدو أنها بالغة الجمال، وإلا من سيزورني؟ فأنت ستكون بعيدا، أما الحيوانات الضخمة، فأنا لا أخشاها لأنني أملك مخالب.»

ثم أظهرت بسذاجة شوكاتها الأربع، وأردفت:

«-لا تتلكّأ هكذا، إنّه أمر مزعج. ما دمت قد صمّمت على الرحيل، فارحل.»

فهي لم تكن تريده أن يراها تبكي. كانت زهرة شديدة الاعتداد بنفسها.

X

لقد كان الأمير الصغير موجودا في منطقة الكويكبات 326، 327، 328، 329، 330. شرع إذن بزيارتها بحثا عن مسكن وعن مّا يمكن أن يتعلّمه.

الكويكب الأول كان يسكنه ملك. وكان هذا الملك يجلس على عرش بسيط، لكنه مهيب، ويلبس الأرجوان والقاقم.

ولما رأى الملك الأمير الصغير، هتف:

«-ها هو أحد رعاياي!»

فتساءل الأمير الصغير:

«-كيف تعرّف عليّ وهو لم يسبق له أن رآني قط!»

لم يكن يعلم أن العالم بالنسبة للملوك مختزل للغاية، فهم يعتبرون كل الناس رعاياهم.

«-اقتَرِب حتى أراك جيّدا»، قال الملك الذي سرّه أخيرا أن يشعر بنفسه ملكا على أحدهم. جال الأمير الصغير بعينيه بحثا عن مكان يجلس فيه، لكن معطف الملك من القاقم كان يحتلّ الكويكب بالكامل. ظل إذن واقفا، وبما أنه كان متعبا، تثاءب.

قال له الملك: «من غير اللائق التثاؤب بمحضر الملك أمنعك من هذا.

أجاب الأمير الصغير مرتبكاً:

-لا أستطيع منع نفسي من التثاؤب. لقد قمت بسفر طويل، ولم أنم...

قال الملك: إذن، آمرك بالتثاؤب. لم أر شخصا يتثاءب منذ سنوات حتّى صار التثاؤب بالنسبة لي من الأمور الطريفة. هيّا! تثاءب مرّة أخرى. إنّه أمر.

-هذا يرهبني... لم أعد أستطيع. قال الأمير الصغير وقد امتقع لونه.

ردّ الملك:

-إذن أنا... أنا آمرك أن تتثاءب تارة، وتارة أخرى...»

غمغم الأمير الصغير، وبدا عليه الضيق.

ولم يكن الملك يسمح بالعصيان، فقد كان حريصا على أن تُحترم سلطته... كان حكمه مطلقا. لكن بما أنه كان طيّبا، كان يصدر أوامر معقولة. كان من عادته أن يقول:

«إذا ما أمرت جنرالاً بأن يتحوّل إلى طائر بحري، فلم يطعني، لن يكون الخطأ خطؤه، بل خطئي.»



سأل الأمير الصغير بخجل: «هل لي أن أجلس؟»

«-آمرك بالجلوس،» أجابه الملك وهو يسحب ذيل معطفه المصنوع من فرو القاقم.

ذهل الأمير الصغير من صغر الكوكب. فعلى من عسى هذا الملك يسود؟



قال له الأمير الصغير: «سيدي ... اسمحوا لي أن أسألكم...
-آمرك أن تسألني، سارع الملك إلى القول.
-من تحكمون؟
-كل شيء، ردّ الملك ببساطة متناهية.
-كل شيء؟»
وبإشارة من يده أومأ الملك إلى كوكبه وإلى الكواكب الأخرى والنجوم.
«-أعلى كل هذا؟ قال الأمير الصغير.
-على كل هذا، ردّ الملك.»
لأنّه لم يكن صاحب حكم مطلق فحسب، بل كان ملكا كونيا أيضا.
«-وهل تأتمر النجوم بأمرك؟
قال الملك بالطبع، هي تطيعني فورا. فأنا لا أسمح بعدم الانضباط.»
أدهشت هذه السلطة الأمير الصغير. لو حصل هو على مثلها لتمكّن من مشاهدة ليس أربعة وأربعين غروبا فحسب، بل اثنين وسبعين أو حتى مائة أو مائتي غروب في يوم واحد، من دون حاجة إلى تحريك كرسيه! وبما أنه كان يشعر بالحزن من ذكرى كوكبه الصغير المهجور، فقد تجرأ على التماس طلب من الملك:
«-أودّ مشاهدة غروب الشمس... هلا تفضلت عليّ وأمرت الشمس بالغروب...
-لو أني طلبت من جنرال أن يطير من زهرة لأخرى على شاكلة الفراش، أو أن يكتب مسرحية تراجيدية، أو أن يتحول إلى طائر بحري، فلم يمتثل لأمري، فمن منا المخطئ، أنا أم هو؟
-ستكون أنت المخطئ، قال الأمير الصغير بجزم.
فأردف الملك: بالضبط، ينبغي أن نطلب من الشخص ما هو بمستطاعه.

فالسلطة تقوم أولا على العقل. لو طلبت من شعبك أن يرتمي في البحر، سيثور عليك. من حقّي أن أطالب بالطاعة ما دامت أوامري معقولة.

-وماذا عن غروبي؟ ذكّره الأمير الصغير، الذي لا ينسى أبدا سؤالا طرحه.

-ستحصل على غروبك. سأحققه لك، ولكن سأنتظر، حسب معرفتي بعلم الحكم، إلى أن تكون الشروط مؤاتية.

-ومتى ستكون كذلك؟ استفسر الأمير الصغير.

ردّ الملك وهو يتأمل روزنامة ضخمة: سيكون ذلك حوالي... حوالي... سيكون هذا المساء حوالي السابعة وأربعين دقيقة! سترى كم أن أوامري مطاعة.»

تثاءب الأمير الصغير، وتحسّر على غروبه المفقود، ثم بدأ شيء من الملل يتسرب إليه، فقال للملك:

«-ليس لديّ ما أفعله هنا، سأنصرف!

-لا تنصرف، أجاب الملك الذي كان في غاية السرور بالعثور على أحد الرعايا. لا تنصرف، سأعيّنك وزيرا!

-بأي وزارة؟

-وزير... العدل!

-لكن ليس ثمة من نحاكم!

-لسنا ندري، قال الملك. لم أطف بعد بمملكتي. أنا طاعن في السن، وليس ثمّة مكان لعربة، والمشي يتعبني.

قال الأمير الصغير وهو ينثني ليطل مرة أخرى على الجانب الآخر من الكوكب: لقد نظرت، لا أحد هناك...

-حاكم نفسك إذن، أجابه الملك. هذا أصعب. محاكمة النفس أصعب من محاكمة الآخرين. لو نجحت في محاكمة نفسك، فستكون حكيما حقيقيا.

قال الأمير الصغير: أستطيع محاكمة نفسي في أيّ مكان. فلست في حاجة للإقامة هنا.

-همم! همم! ردّد الملك. أظنّ أن في مكان ما من كوكبي، يوجد جرذ عجوز. أسمعه ليلا. بإمكانك أن تحاكم هذا الجرذ العجوز. ستحكم عليه بالإعدام بين الفينة والأخرى، وبهذا ستتوقف حياته على عدالتك، لكنك ستعفو عنه في كل مرة حتى تحافظ عليه. لا يوجد غيره.

رد الأمير الصغير أنا لا يروقني الحكم بالإعدام، وأظن أنني سأنصرف.

-لا تنصرف، قال الملك.»

لكن، لمّا فرغ الأمير الصغير من استعداداته، شقّ عليه أن يرهق الملك العجوز:

«-إذا شئت جلالتك أن تُطاع فورا، عليك أن تعطيني أوامر معقولة. بإمكانك أن تأمرني مثلا بالرحيل في غضون دقيقة. يبدو أن الشروط مناسبة...»

تردّد الأمير الصغير في البداية أمام صمت الملك، ثم تنهّد وانطلق.

«-سأتّخذك سفيرا،» هتف الملك وقد بدا كما لو أنه صاحب سلطة كبيرة.

«ما أغرب الراشدين» قال الأمير الصغير في نفسه طيلة السفر.

XI

الكوكب الثاني كان يسكنه شخص مغرور بنفسه:

«-هذه زيارة معجَبٌ بي!» صاح المغرور حين لمح الأمير الصغير من بعيد.



فالمغرورون يعتبرون غيرهم من الناس معجبين بهم.

قال الأمير الصغير: «صباح الخير. إن قبعتك غريبة.

رد المغرور: أستعملها للتحية. أستعملها لتحيّة من يصفقون لي. لكن للأسف، لا أحد يمرّ من هنا.

-حسنا! قال الأمير الصغير الذي لم يفهم شيئا.

قال المغرور ناصحا: اضرب إحدى يديك بالأخرى.»

وضرب الأمير الصغير



إحدى يديه بالأخرى، فحيّاه المغرور بتواضع رافعا قبعته.

قال الأمير الصغير في نفسه: «هذه زيارة أكثر تسلية من زيارة الملك»، ثم أعاد ضرب إحدى يديه بالأخرى، وحيّاه المغرور مرّة ثانية برفع قبعته.

وبعد خمس دقائق من التصفيق، تعب الأمير الصغير من رتابة اللعبة، فسأله:

«-ماذا يتوجب عليّ فعله حتّى تسقط القبعة؟»

لكن المغرور لم يسمعه، لأن المغرورين لا يسمعون سوى الإطراء.

«-أأنت حقّا معجب بي كثيرا؟ سأل المغرور الأمير الصغير.

-ما معنى الإعجاب ؟

أجاب المغرور: الإعجاب معناه أن تقرّ بأنّني أجمل إنسان والأكثر أناقة والأغنى والأذكى على الكوكب.

-ولكنك وحيد على كوكبك!

-قدّم لي هذه الخدمة، حاول أن تعجب بي مع ذلك!

قال الأمير الصغير وهو يهزّ كتفيه هزّا خفيفا: أنا معجب بك، ولكن فيم سيفيدك هذا؟»

ثم انصرف الأمير الصغير.

«الراشدون غريبو الأطوار حقّا» راح يقول في نفسه ببساطة طوال السفر.

XII

الكوكب التالي كان يسكنه سكّير. كانت زيارته هذه قصيرة للغاية، لكنها زجّت بالأمير الصغير في كآبة كبيرة:

«-ماذا تفعل هنا؟ قال للسكّير الذي كان جالسا بصمت أمام بضعة قناني فارغة وأخرى مليئة.

ردّ السكّير بنبرة حزينة: أشرب.

سأله الأمير الصغير: ولماذا تشرب؟

أجاب السكّير: لكي أنسى.

استفسر الأمير الصغير الذي بدأت تأخذه الشفقة به: ماذا تنسى؟

أسرّ له السكّير وقد أحنى رأسه:

-لكي أنسى الخزي الذي أشعر به.

-الخزي مماذا؟ استفهم الأمير الصغير وقد عزم على نجدته.

-الخزي من الشرب!» قال السكّير قبل أن يلوذ بالصمت نهائيا.

فغادر الأمير الصغير متحيّرا.

« الراشدون غريبو الأطوار حقّا» قال في نفسه خلال السفر.

XIII

الكوكب الرابع هو كوكب رجل الأعمال. وقد كان هذا الرجل منشغلا جدا لحد أنه لم يرفع رأسه عند وصول الأمير الصغير.

قال الأمير الصغير: «صباح الخير، لقد انطفأت سيجارتك.

-ثلاثة زائد اثنان تساوي خمسة، وخمسة زائد سبعة تساوي اثنا عشر، واثنا عشر زائد ثلاثة تساوي خمسة عشر. صباح الخير. خمسة عشر زائد سبعة تساوي اثنان وعشرون. اثنان وعشرون زائد ستة تساوي ثمانية وعشرون. لا وقت لدي لإعادة إشعالها. ستة وعشرون وخمسة تساوي واحد وثلاثون. أوف! المجموع إذن خمسمائة مليون ومليون واحد وستمائة واثنان وعشرون ألفا وسبعمائة وواحد وثلاثون.

-خمسمائة مليون ماذا؟

-أما زلت هنا؟ خمسمائة مليون... لم أعد أذكر... لدي شغل كثير! أنا جاد ولا أضيِّع وقتيَ في الترهات! اثنان زائد خمسة تساوي سبعة...



كرّر الأمير الصغير الذي لم يتخلّ قط عن سؤال طرحه: خمسمائة مليون ومليون واحد ماذا؟»

رفع رجل الأعمال رأسه وقال:

«-طيلة أربع وخمسين سنة قضيتها على هذا الكوكب، لم أتعرّض للإزعاج إلا ثلاث مرات. المرّة الأولى كانت منذ اثنتين وعشرين سنة حين أزعجتني خنفساء كبيرة سقطت من مكان لا يعلمه إلا الله، وأحدثت ضجة رهيبة، فارتكبت خمسة أغلاط في عملية جمع. ثم كانت المرّة الثانية منذ إحدى عشرة سنة، وكانت بسبب أزمة روماتيزم، لأنني لم أكن أمارس الرياضة، ولا وقت لدي للمشي. فأنا شخص جاد. وهذه هي المرة الثالثة!

كنت أقول إذن خمسمائة مليون ومليون واحد...

-مليون ماذا؟»

وأدرك رجل الأعمال أن لا أمل له في الهدوء:

«-خمسمائة مليون وواحد من الأشياء الصغيرة التي نراها أحيانا في السماء.

-من الذباب؟

-كلا، من الأشياء الصغيرة اللامعة.

-من النحل؟

-كلا، من الأشياء الصغيرة المذهبة التي تغري الكسالى بالحلم. أما أنا فشخص جاد! لا وقت لدي للاستغراق في الأحلام.

-تقصد النجوم؟

-النجوم طبعا.

-وماذا تفعل بهذه الخمسمائة مليون من النجوم؟

-خمسمائة وواحد مليون وستمائة واثنان وعشرون ألفا وسبعمائة وواحد وثلاثون. أنا جاد ودقيق أنا.

-وماذا تفعل بهذه النجوم؟

-ما أفعل بها؟

-نعم.

-لا شيء، أملكها.

-أتملك النجوم؟

-أجل.

-لكنني رأيت سابقا ملكا...

-الملوك لا يملكون، هم يسودون. الأمر مختلف.

-وبماذا سيفيدك امتلاك النجوم؟

-يفيدني في أن أصير ثريا.
-وفي ماذا يفيد الثراء؟
-في شراء نجوم أخرى، إذا ما عثر عليها أحدهم.»
فقال الأمير الصغير في نفسه: «هذا يفكر مثل السكّير».
لكنه طرح مزيدا من الأسئلة:
«-كيف يمكن امتلاك النجوم؟
ردّ رجل الأعمال مغتاظا: ومن يملكها؟
قال الأمير الصغير: لست أدري. لا يملكها أحد.
قال رجل الأعمال: إذن فهي لي، لأنني أنا أوّل من فكّر فيها.
سأل الأمير الصغير: وهل هذا كاف لتكون لك؟
-بطبيعة الحال. فحين تعثر على ماسة لا يملكها أحد، فهي لك. وحين تعثر على جزيرة ليست لأحد، فهي لك. وحين تكون أوّل من فكّر في فكرة، تقوم بتسجيل براءتها، وتصبح في ملكيتك. وأنا أملك النجوم لأن أحدا لم يسبقني للتفكير في امتلاكها.
قال الأمير الصغير: هذا صحيح. وماذا ستفعل بها؟
- أدبّرها. أحصيها وأحصيها. إنه أمر صعب، ولكنني رجل مثابر!»
لم يكن الأمير الصغير قد شعر بالرضا بعد، فقال لرجل الأعمال:
«-أنا لو كان لي وشاح لوضعته حول عنقي وأخذته معي. أنا لو كانت لي زهرة، لقطفت زهرتي وحملتها معي. أما أنت فلا تستطيع قطف النجوم!
-كلا، ولكني أستطيع إيداعها في البنك.
-وماذا يعني هذا؟
-هذا معناه أنني أكتب على ورقة صغيرة عدد نجماتي، ثم أضع الورقة في درج، وأغلقه بالمفتاح.

سأل الأمير الصغير: وهل هذا كل شيء؟
-هذا يكفي!»
ففكّر الأمير الصغير: «هذا شيء مسلّ. إنه لا يخلو من شاعرية، لكنّه ليس جدّيا.»
كانت أفكار الأمير الصغير حول الأشياء الجادّة شديدة الاختلاف عن أفكار الأشخاص الراشدين. واسترسل قائلا:
«-أنا أملك زهرة أرويها كل يوم، وأملك ثلاثة براكين أنظّفها كل أسبوع، بما فيها ذاك البركان الخامد. ليس بالإمكان التنبؤ بما قد يقع. إن امتلاكي لبراكيني وزهرتي أمر مفيد لها. لكنك أنت غير مفيد للنجوم...»
فتح رجل الأعمال فمه، لكنه لم يجد جوابا، ثم انصرف الأمير الصغير.
«الراشدون أشخاص غريبون حقّا»، قال في نفسه ببساطة خلال السفر.

XIV

كان الكوكب الخامس في منتهى الغرابة. كان أصغرها جميعا. لم يكن يتسع لأكثر من مصباح شوارع ومشعل مصابيح عمومية. ولم يستطع الأمير الصغير أن يفهم الجدوى من وجود مصباح شوارع ومشعل مصابيح في مكان ما من السماء، على كوكب ليس فيه منازل ولا سكان. لكنه قال في نفسه:
«قد يكون هذا الرجل سخيفا، لكنه أقل سخافة من الملك ومن المغرور ومن رجل الأعمال والسكّير. على الأقل هو يقوم بعمل ذا معنى. إذ عندما يوقد مصباح الشارع، فكأنه يضيف نجمة أو زهرة. وحين يطفئ المصباح، فإن فعله ذاك يساعد الزهرة أو النجمة على النوم. إنه شغل في غاية الروعة.

وبما أنه رائع فهو نافع حقًا.»

وعندما حلّ بالكوكب، حيّا مشعل المصباح بأدب:

«-صباح الخير، لماذا أطفأت مصباحك؟

-إنها التعليمات. صباح الخير.

-وما هي التعليمات؟

-هي إطفاء مصباحي. مساء الخير.»

ثم أعاد إشعاله.

«-ولماذا أعدت إشعاله؟

رد المشعل: إنها التعليمات.

قال الأمير الصغير: لم أفهم.

قال المشعل: ليس ثمة ما يُفهم. التعليمات هي التعليمات. صباح الخير.»

ثم أطفأ مصباحه.

جفّف جبينه بمنديل ذي مربعات حمراء، ثم أضاف:

«-إنني أمارس مهنة مريعة. كانت معقولة في الماضي. كنت أطفئ المصباح في الصباح وأشعله في المساء. أستريح بقية اليوم وأنام بقية الليل...

-وهل تغيرت التعليمات بعد هذه الفترة؟

قال المشعل: التعليمات لم تتغيّر. وهنا مكمن المأساة! ذلك أن الكوكب صار يدور بشكل أسرع فأسرع، وسرعته تتزايد سنة بعد سنة؛ في حين لم تتغير التعليمات!

سأل الأمير الصغير: والنتيجة إذن؟

-النتيجة هي أنني لم أعد أجد ثانية واحدة للراحة بعدما صار الكوكب يدور مرة في الدقيقة!

-هذا أمر غريب! الأيام عندك تدوم دقيقة واحدة!

«إنني أمارس مهنة مريعة.»





قال المشعل ليس غريبا البتة. لقد مضى شهر منذ أن بدأنا الحديث.

-شهر!

-أجل، ثلاثون دقيقة. ثلاثون يوما! مساء الخير.»

وأشعل المصباح.

نظر إليه الأمير الصغير، وأحبّ هذا المُشعل الحريص على تطبيق التعليمات. وتذكّر لحظات الغروب التي كان يسعى هو نفسه لمشاهدته عبر تحريك مقعده، وتاق لمساعدة صديقه فقال له:

«-هل تعلم... إنني أعرف وسيلة تمكنك من الاستراحة متى شئت...

قال المشعل: أتلهف لمعرفتها.»

وبما أن المرء قد يكون مخلصا وكسولا في الآن نفسه، استرسل الأمير الصغير:

«-إن كوكبك من الصغر بحيث يمكنك أن تدور حوله بثلاث خطوات. يكفيك أن تسير ببطء لكي تظل في الشمس دائما. فإذا رغبت في الاستراحة، عليك بالمشي... وبذلك يدوم النهار قدرما شئت.

قال المشعل: هذا لا يغيّر من الأمر شيئا. ما أحبّه في الحياة هو النوم.

قال الأمير الصغير: ما من حلّ غيره.

قال المُشعل: ما من حلّ غيره. صباح الخير. ثم أطفأ مصباحه.

وبينما واصل الأمير الصغير سفره بعيدا، قال في نفسه: «هذا الشخص محط ازدراء الآخرين جميعا: الملك والمغرور والسكّير ورجل الأعمال، مع أنه هو الوحيد الذي لم أجده سخيفا. ربّما لأنه يعتني بشيء آخر عوض أن يعتني بنفسه.»

تنهّد الأمير الصغير تنهيدة أسف، ثم قال في نفسه مرة أخرى: «هذا هو الوحيد الذي كان من الممكن أن أتّخذه صديقا، لكن كوكبه في منتهى الصغر، لا يتسع لشخصين...»

ما لم يكن الأمير الصغير يجرؤ على الاعتراف به لنفسه، هو أن سبب أسفه على هذا الكوكب المبارك هي الألف وأربعمائة وأربعين غروبا في أربع وعشرين ساعة!

XV

الكوكب السادس كان أكبر بعشر مرات، وكان يسكنه رجل عجوز يكتب كتبا ضخمة وعندما رأى الأمير الصغير، هتف:

«-يا له من مستكشف!»

جلس الأميرالصغير إلى الطاولة وهو يستردّ أنفاسه قليلا. فقد أتعبه طول السفر!

سأله العجوز: «من أين أتيت؟

قال الأمير الصغير: ما هذا الكتاب الضخم؟ ماذا تفعل هنا؟

-أنا جغرافي، قال العجوز.

-ومن هو الجغرافي؟

-هو عالم يعرف موقع البحار والوديان والمدن والجبال والصحاري.

-هذا شيء مهم، قال الأمير الصغير. أخيرا ها هي مهنة حقيقية!»

وجال ببصره فيما حوله على كوكب الجغرافي. لم يسبق له أن رأى كوكبا في مثل تلك الفخامة.

«-إن كوكبك جميل. هل فيه محيطات؟



قال الجغرافي: لا أستطيع معرفة ذلك.

شعر الأمير الصغير بالخيبة وأضاف: حسناً والجبال؟

ردّ الجغرافي:

-لا أستطيع معرفة ذلك.

- والمدن والوديان والصحاري؟.

قال الجغرافي: لا أستطيع معرفة هذه أيضا.

- ولكنك جغرافي!

قال الجغرافي: هذا صحيح. ولكني لست مستكشفا. أنا في حاجة ماسة إلى مستكشفين. فليس الجغرافي هو من سيحصي المدن والوديان والجبال والبحار والمحيطات والصحارى. إن الجغرافي أهمّ من أن يقضي وقته

في التسكع. هو لا يبارح مكتبه، لكنه يستقبل المستكشفين، يستجوبهم، ويسجل ذكرياتهم. فإذا بدت له ذكريات أحدهم مهّمة، أمر بإنجاز تحقيق حول أخلاق المستكشف.

-ولماذا يقوم بذلك؟

-لأن المستكشف الذي يكذب سيتسبب في كوارث بكتب الجغرافيا. والأمر نفسه بالنسبة لمستكشف سكّير.

-ولماذا هذا؟ سأل الأمير الصغير.

-لأن السكارى يرون الأشياء على نحو مزدوج، وهو ما سيجعل الجغرافي يسجل جبلين حيث لا يوجد غير جبل واحد.

قال الأمير الصغير: أعرف أحدهم. يمكن أن يكون مستكشفا رديئا.

-هذا ممكن. إذن فحين تبدو أخلاق المستكشف فاضلة، فإننا نُجري تحقيقا حول اكتشافه.

-أثمّة من يذهب للتحقق من ذلك؟

-كلا. الأمر في غاية التعقيد، لكننا نطالب المستكشف بالدليل. فإذا تعلّق الأمر مثلا باكتشاف جبل عظيم، اشترطنا عليه أن يجلب معه حجارة ضخمة.»

انفعل الجغرافي فجأة:

«-ولكنك قدمت من بعيد! أنت مستكشف! صف لي كوكبك!»

فتح الجغرافي سجله، وراح يبري قلمه، فحكايات المستكشفين تُسَجّل في البداية بقلم الرصاص. فقبل تدوينها بالحبر، يطلب من المستكشف تقديم الحجج.

«-ماذا إذن؟ سأل الجغرافي.

قال الأمير الصغير: في كوكبي، لا شيء ذا بال. إنه كوكب صغير للغاية.

عندي ثلاثة براكين، اثنان منها نشيطان، والثالث خامد. لكن لا يمكن التنبؤ بما قد يقع.

ردّد الجغرافي: لا يمكن التنبؤ بما قد يقع.

-عندي زهرة أيضا.

-لا نسجل الزهور، قال الجغرافي.

-ولماذا؟ إنها الأجمل!

-لأن الزهور زائلة.

-وما معنى زائلة ؟

قال الجغرافي: كتب الجغرافيا هي أكثر الكتب جدية. فهي لا تبلى. من النادر أن يغير جبل مكانه، أو أن يجفّ محيط من مائه. إننا ندوّن الأشياء الأبدية.

قال الأمير الصغير: لكن البراكين الخامدة يمكن أن تستيقظ. ما معنى زائلة ؟

قال الجغرافي: أن تخمد البراكين أو تستيقظ، الأمر سيان بالنسبة لنا. المهم بالنسبة إلينا هو الجبل. فهو لا يتغيّر.

-ولكن ما معنى زائلة ؟ كرّر الأمير الصغير الذي لم يتخلّ طول حياته عن سؤال طرحه.

-معناها أنها مهدّدة بالاختفاء الوشيك.

-هل زهرتي مهدّدة بالاختفاء الوشيك؟

-بالطبع.»

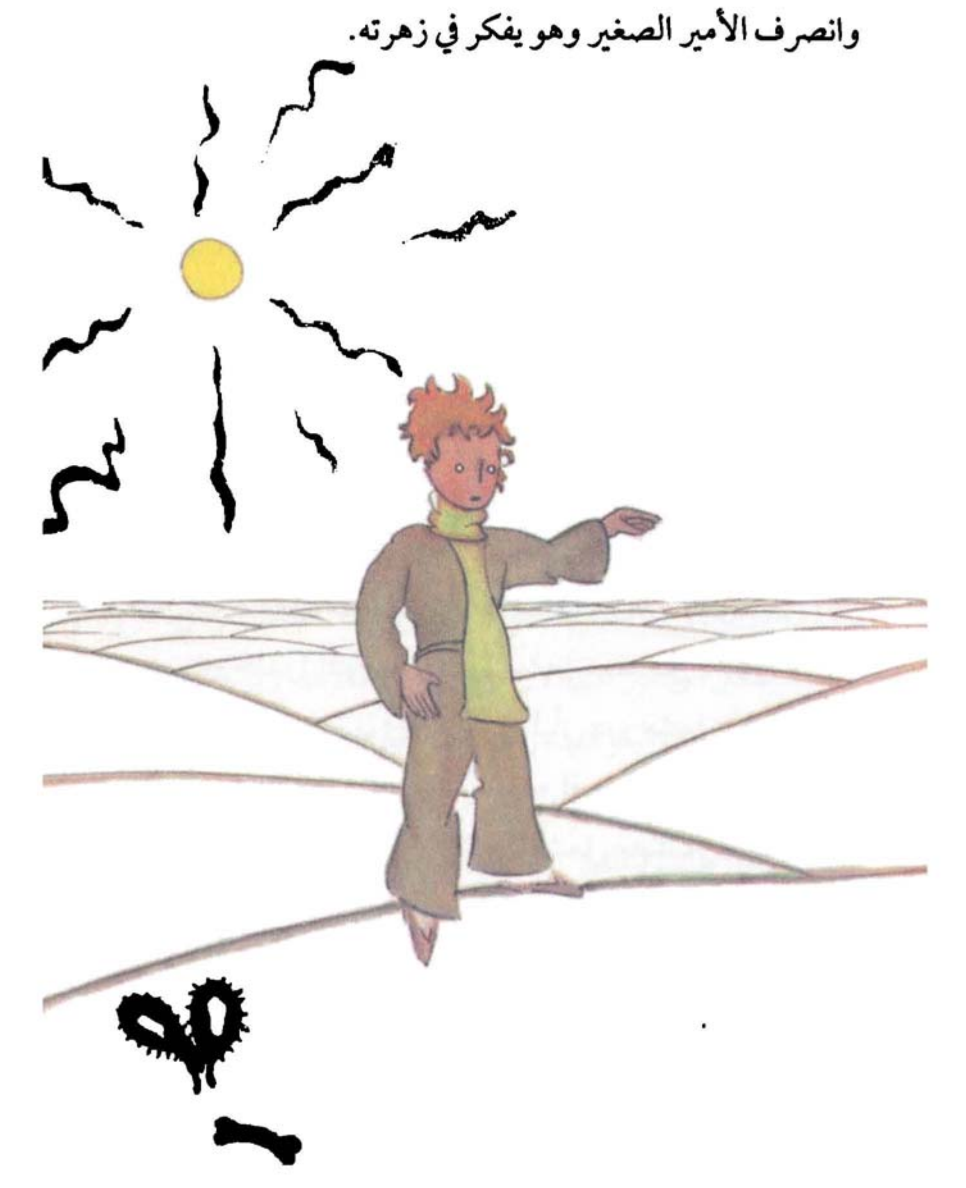
قال الأمير الصغير في نفسه «زهرتي مهدّدة بالاختفاء الوشيك، وهي لا تملك سوى أربع شوكات تدافع بها عن نفسها! وقد تركتها في كوكبي بمفردها!»

كانت هذه هي أوّل مرّة يشعر فيها بالندم، لكنه تشجّع وسأل:

«-أي شيء تنصحني بزيارته؟

أجاب الجغرافي: كوكب الأرض. له سمعة طيبة...»

وانصرف الأمير الصغير وهو يفكر في زهرته.



XVI

كان الكوكب السابع إذن هو كوكب الأرض.

ليست الأرض كوكبا كسائر الكواكب! فهي تضم مائة وأحد عشر ملكا (من دون نسيان ملوك الزنوج بطبيعة الحال)، وسبعة آلاف جغرافي، وتسعمائة ألف رجل أعمال، وسبعة ملايين ونصف سكّير، وثلاثمئة وأحد عشر مليون مغرور، أي ما يقارب من ملياري راشد.

ولإعطائكم فكرة عن حجم الأرض، أقول لكم إنه قبل اختراع الكهرباء، كان علينا تشغيل جيش من اثنين وأربعمائة ألف وخمسمائة وأحد عشر مُشعِل مصابيح.

إن النظر لهذا من بعيد يترك في النفس أثرا رائعا. كانت حركات هذا الجيش من المشعلين مضبوطة، أشبه ما تكون بحركات راقصي أوبرا. يأتي في البداية دور مشعلي مصابيح نيوزيلاندا وأستراليا، فإذا أشعل هؤلاء مصابيحهم، وخلدوا للنوم، أتى دور مشعلي مصابيح الصين وسيبيريا، فيؤدون رقصتهم ثم يختفون في الكواليس ليأتي دور مشعلي مصابيح روسيا والهند، وبعدهم يحلّ دور مشعلي مصابيح إفريقيا وأوروبا، ثم يأتي دور مشعلي مصابيح أمريكا الجنوبية، وإثرهم مشعلي مصابيح أمريكا الشمالية. وهم كلهم يسيرون على نظام واحد لا يخطئونه. إنه أمر عظيم.

وحدهما مشعل مصباح القطب الشمالي، ومشعل مصباح القِطب الجنوبي كانا يعيشان حياة فراغ ولامبالاة: لم يكونا يشتغلان إلا مرتين في السنة.

XVII

حين نرغب في الهزل، قد نضطر إلى قليل من الكذب. لم أكن صادقا عندما حدّثتكم عن مشعلي المصابيح. ربما قدّمت فكرة زائفة عن كوكبنا لمن لا يعرفونه. ذلك أن الإنسان لا يحتل من الأرض غير مساحة في منتهى الصغر. فلو وقف المليارات من الناس الذين يعيشون على الأرض مزدحمين قليلا كما يحدث في التجمّعات، لوسعتهم ساحة عمومية بعشرين ميلا طولا وعشرين ميلا عرضا، ولأمكن تكديس كل البشر في أصغر جزيرة في المحيط الهادي.

وبطبيعة الحال، لن يصدقك الراشدون. فهم يتخيّلون أنهم يشغلون حيّزا كبيرا، ويظنّون أنّهم مهمّين مثل شجر الباوباب. انصحهم إذن بإنجاز عمليات حسابية، وهم يعشقون الأرقام: هذا يروقهم. لكن لا تضيّع وقتك في هذا العمل الروتيني الذي لا جدوى منه. لعلك تثق بي.

لما حطّ الأمير الصغير على الأرض، تفاجأ بخلوّها. وبينما شعر بالخوف من أن يكون قد أخطأ الكوكب، رمق حلقة قمرية اللون تتحرك على الرمل.

قال الأمير الصغير بشكل عشوائي: «طاب ليلك.

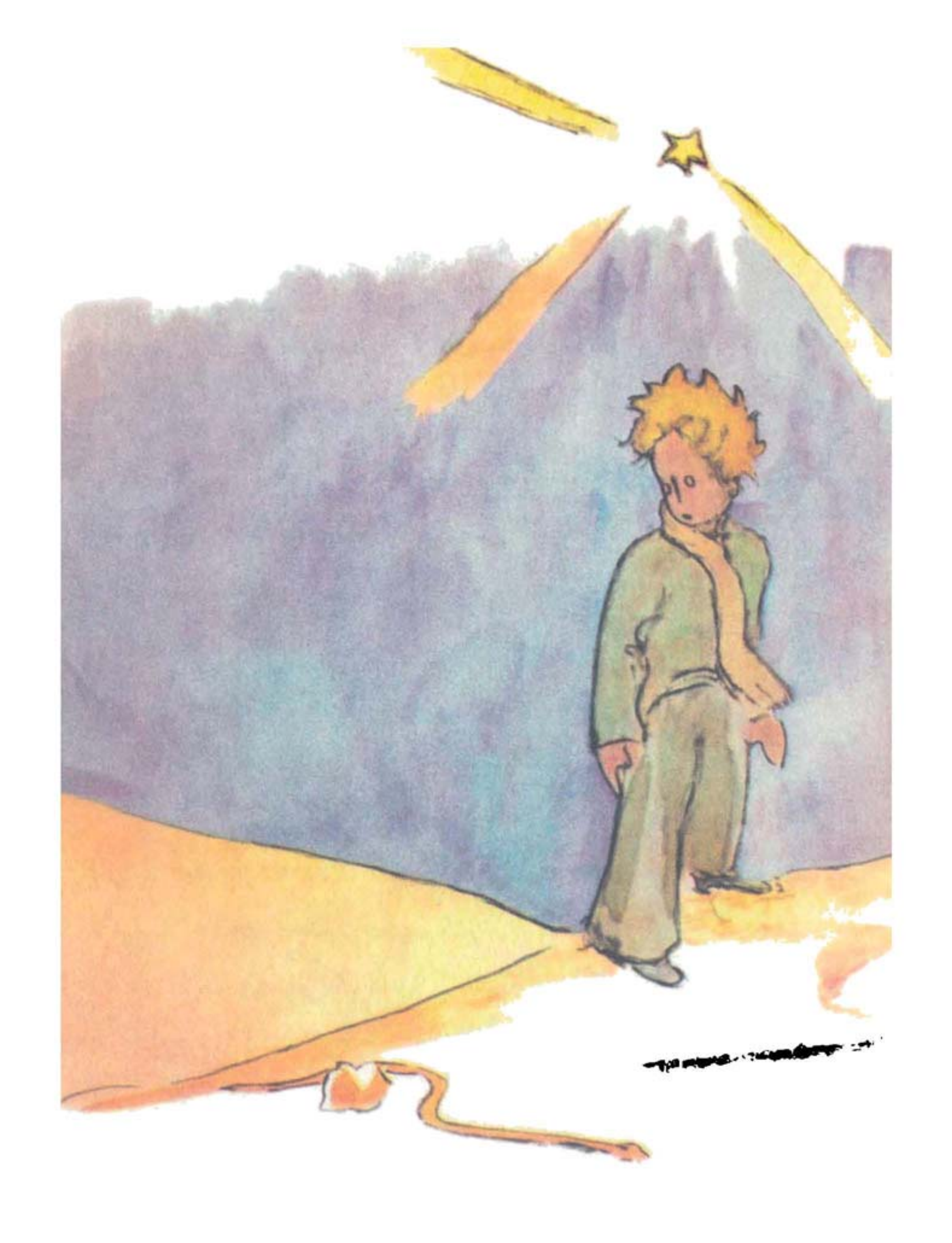
قال الثعبان: طاب ليلك.

سأل الأمير الصغير: ما اسم هذا الكوكب الذي حططتُ عليه؟

ردّ الثعبان: على الأرض، بإفريقيا.

استفسر الأمير الصغير: آه! ... لا يوجد إذن أحد على الأرض؟

قال الثعبان: إنها الصحراء. لا يوجد أحد بالصحاري. الأرض واسعة.»
جلس الأمير الصغير على حجر ورفع عينيه للسماء وقال:
«-أتساءل ما إذا كانت النجوم تضيء حتّى يستطيع كل واحد ذات يوم أن يعثر على نجمته. انظر إلى نجمتي، إنها توجد فوقنا مباشرة... ولكن، ما أبعدها!
قال الثعبان إنها جميلة. لماذا أتيت إلى هنا؟
قال الأمير الصغير: لدي متاعب مع زهرة.
-حسنا!» قال الثعبان.
وغرقا في الصمت.
ثم استأنف الأمير الصغير أخيرا: «أين الناس؟ يشعر المرء بالوحدة في هذه الصحراء...
قال الثعبان: الشعور بالوحدة موجود أيضا حتّى بين الناس.»
حدّق فيه الأمير الصغير طويلا، ثم قال أخيرا:
«-يا لك من حيوان غريب،أنت نحيل ورفيع... رفيع كالأصبع...
قال الثعيان: لكنني أقوى من إصبع ملك.»
ارتسمت ابتسامة على محيّا الأمير الصغير، وقال:
«-لستَ قويا... أنت لا تملك حتى القوائم... لا تستطيع السفر...
قال الثعبان: أستطيع نقلك أبعد مما تستطيع سفينة.»
وطوّق كعب الأمير الصغير مثل خلخال ذهبي، وأردف:
«-من ألمسه أعيده إلى التراب من حيث خرج. بيد أنك طاهر وقادم من نجم...»
لم يجب الأمير الصغير بشيء.
أضاف الثعبان: «إنني أشفق عليك، أنت الضعيف على أرض الجرانيت هذه. أنا مستعدّ لمساعدتك إذا ندمت يوما على كوكبك، أستطيع...



«يا لك من حيوان غريب، أنت نحيل ورفيع... رفيع كالأصبع...»

قال الأمير الصغير: حسنا! لقد فهمت جيّدا. ولكن، لماذا تتحدّث دائما بالألغاز؟

قال الثعبان: إني أحلّ جميع الألغاز.»

وخيّم الصمت.

XVIII

عبر الأمير الصغير الصحراء، ولم يصادف غير زهرة ببتلات ثلاث، زهرة ليست ذات بال...

«-صباح الخير، قال الأمير الصغير.

-صباح الخير، قالت الزهرة.

-أين هم الناس؟» سأل الأمير الصغير بأدب.

وكانت الزهرة قد رأت يوما قافلة تمرّ فقالت:

«-الناس؟ أظن أنه يوجد منهم ستة أو سبعة. لمحتهم منذ سنوات. لكن لا أحد يعرف المكان الذي يمكن العثور عليهم فيه. تطوف بهم الريح لأنهم بلا جذور، وهذا يزعجهم كثيرا.

قال الأمير الصغير: الوداع.

-الوداع،» قالت الزهرة.

XIX

ارتقى الأميرالصغير جبلا شاهقا. ولم يكن قد رأى في حياته غير البراكين الثلاثة التي بطول ركبته، وقد كان يتّخذ البركان الخامد مقعدا يجلس عليه. فقال في نفسه إذن: «من فوق جبل بمثل هذا العلو سأتمكّن من مشاهدة الناس جميعا، وأستطيع النظر إلى الكوكب بكامله دفعة واحدة...» لكنه لم ير سوى كتل صخرية مسنّنة.

«-صباح الخير، قال بشكل عشوائي.

ردّ الصدى: صباح الخير... صباح الخير... صباح الخير...

-من أنت؟ قال الأمير الصغير.

أجاب الصدى: من أنت... من أنت... من أنت...



-كونوا أصدقائي، فأنا وحيد، قال الأمير الصغير.

ردّ الصدى: أنا وحيد... أنا وحيد... أنا وحيد...»

فكّر إذن، وقال في نفسه «يا له من كوكب غريب! إنه كوكب جافّ ومدبّب ومالح، والناس فيه يُعوزهم الخيال. إنهم يكرّرون ما يقال لهم... في كوكبي، كانت لي زهرة: كانت تتكلّم دائما هي أولاً...»

XX

لكن الأمير الصغير بعدما مشى طويلا عبر الرمال والكتل الصخرية والثلوج، انتهى به الأمر إلى اكتشاف طريق، وكلّ الطرق تقود إلى البشر.

قال الأمير الصغير: «صباح الخير.»

كانت ثمة حديقة ازدانت بالورود.

قالت الورود: «صباح الخير.»

نظر الأمير الصغير إليها. كانت جميعها تشبه زهرته.

«-من أنتم؟ سأل مذهولا.

-نحن ورود، ردّت الورود.

فقال الأمير الصغير: حسنا!...»

وشعر بحزن شديد. كانت زهرته قد حكت له بأنّها فريدة، لا مثيل لها في الكون. وها هي خمسة آلاف زهرة، كلها تشبهها، وفي حديقة واحدة! فقال في نفسه:

«لو رأت زهرتي هذا، لتملّكها الغيظ... واستغرقت في السعال، وتظاهرت بالموت حتى تفلت من السخرية. وسأضطر للتظاهر بمعالجتها، وإلا عمدت إلى قتل نفسها فعلا حتّى تشمت بي أنا أيضا...»



«إنه كوكب جافّ ومدبّب ومالح.»



ثم قال في نفسه كذلك: «كنت أظنّني ثريا بامتلاكي زهرة واحدة، وأنا لا أملك سوى زهرة عادية. أملكها هي والبراكين الثلاثة التي تبلغ ركبتي، والتي قد يكون أحدها خامدا للأبد. وكل هذا لا يجعل منّي أميرا عظيما...»، ثم راح يبكي وهو مستلق على العشب.

XXI

وفي هذه اللحظة ظهر الثعلب.

«-صباح الخير. قال الثعلب.

أجاب الأمير الصغير بأدب وهو يلتفت فلا يرى شيئا: صباح الخير.

قال الصوت: أنا هنا تحت شجرة التفاح...

قال الأمير الصغير: من أنت؟ أنت جميل حقّا...

قال الثعلب: أنا ثعلب.

اقترح الأمير الصغير قائلاً: تعال لنلعب. فأنا حزين للغاية...

قال الثعلب: لا أستطيع اللعب معك، فأنا لست مدجّنا.

قال الأمير: الصغير حسنا! المعذرة..»

لكنه بعد أن فكر مليّا أردف:

«-ما معنى مدجّن ؟

قال الثعلب: أنت لست من هنا. عماذا تبحث؟

قال الأمير الصغير: أبحث عن الناس. ما معنى مدجّن ؟

قال الثعلب: الناس يملكون بنادق ويصطادون. إنه أمر مزعج! إنهم يربّون الدجاج أيضا. هذا هو شاغلهم الوحيد. أتبحث عن الدجاج؟

قال الأمير الصغير: كلا أبحث عن أصدقاء. ما معنى مدجّن ؟



-إنه شيء طواه النسيان. معناه ربط علاقات...

-ربط علاقات؟

قال الثعلب: بالطبع. أنت لست بالنسبة إليّ سوى طفل صغير شبيه بمائة ألف طفل صغير. وأنا في غنى عنك مثلما أنت في غنى عنّي. أنا لست بالنسبة إليك غير ثعلب شبيه بمائة ألف ثعلب. لكن إذا دجّنتني، سيصير كلّ منا في حاجة للآخر. ستكون فريدا بالنسبة لي في هذا الكون، وسأكون أنا فريدا بالنسبة لك في هذا الكون...

قال الأمير الصغير: بدأت أفهم. أعتقد أن ثمّة وردة دجّنتني...

قال الثعلب: هذا ممكن، يمكن أن يرى المرء على الأرض أشياء غريبة...

قال الأمير الصغير: ليس على الأرض.»

بدت الحيرة على الثعلب:

«-على كوكب آخر؟

-نعم.

-أيوجد قناصون على ذلك الكوكب؟

-كلا.

-هذا شيء مهم! والدجاج، أيوجد دجاج؟

-كلا.

-لا شيء كامل في هذا العالم،» قال الثعلب متحسّرا.

لكن الثعلب عاد لفكرته وقال:

«-حياتي رتيبة. فأنا أصطاد الدجاج، والناس سيصطادونني. فكلّ الدجاج يتشابه، وكل الناس يتشابهون. وهذا يشعرني إذن ببعض الملل أحيانا. أما لو دجّنتني، ستكون حياتي مرحة. سيكون صوت خطاك بالنسبة لي صوتا مختلفا عن جيمع أصوات الخطى الأخرى. وقع الخطى الأخرى

تجعلني اختبئ تحت الأرض. أما خطاك فستدعوني للخروج من عرتوفي كما لو أنها نغمة موسيقية. ثم انظر! أترى حقول القمح هناك؟ أنا لا آكل الخبز. القمح لا أهمية له بالنسبة لي، وحقول القمح لا تذكرني بشيء. إنه أمر محزن! لكن شَعرك بلون الذهب. إذن سيكون الأمر رائعا حين تدجّنني! سيذكّرني القمح المذهّب بك. وسأعشق حفيف سنابل القمح حين يحركها الريح...»

وصمت الثعلب، وحدّق إليه الأمير الصغير وقال:

«- من فضلك... دجّنّي!

ردّ الأمير الصغير بودّي ذلك. لكنّ ليس لديّ وقت. هناك أصدقاء ينبغي أن أكتشفهم، وأشياء كثيرة ينبغي أن أعرفها.

قال الثعلب لا نعرف سوى الأشياء التي ندجّنها. لم يعد للناس وقت لمعرفة شيء. فهم يشترون من التّجار الأشياء الجاهزة. وبما أنه لا يوجد تجّار يبيعون الأصدقاء، لم يعد للناس أصدقاء. إذا كنت ترغب في صديق، فدجنّي!

قال الأمير الصغير: ماذا ينبغي أن أفعل؟.

أجاب الثعلب: ينبغي أن تكون صبورا. اجلس على العشب أولا هكذا على مبعدة منّي قليلا. سأرمقك بطرف عيني، ولا تقل شيئا. فاللغة هي مصدر الخلاف. لكن بإمكانك أن تقترب منّي شيئا فشيئا...»

وفي اليوم التالي عاد الأمير الصغير، فقال له الثعلب:

«-كان الأولى أن تعود في نفس الوقت. فإذا جئت على الساعة الرابعة بعد الزوال مثلا، سيبدأ الفرح يساورني منذ الثالثة. وكلّما تقدم الوقت، زاد شعوري بالفرح. فلا تكاد تحلّ الساعة الرابعة، حتى يكون الاضطراب والقلق قد تملكاني، وأكتشف ثمن السعادة! أما إذا أتيت في أي وقت كيفما اتفق، لن يكون بمقدوري قط أن أعرف متى أهيّء لك قلبي... فالأمر يحتاج إلى طقوس.

سأل الأمير الصغير: وما الطقوس؟

أجاب: إنها شيء طواه النسيان أيضا. هي ما يجعل أحد الأيام مختلفا عن سائر الأيام، ويجعل ساعة محددة مختلفة عن سائر الساعات. فمن يصطادونني مثلا لهم طقس معين. فهم يرقصون يوم الخميس مع فتيات القرية، فيصير بذلك يوم الخميس يوما عجيبا! أذهب فيه للنزهة حتى أبلغ الكرمة. فلو كان الصيادون يرقصون في أي وقت كان، لكانت كل الأيام متشابهة، ولما كانت لي إجازة على الإطلاق.»

وهكذا دجّن الأمير الصغير الثعلب. ولمّا اقتربت ساعة الرحيل، قال الثعلب: «آه!... سأنتحب.

قال الأمير الصغير: إنها غلطتك. لم أشأ إيذاءك، لكنك رغبت أن أدجّنك...

قال الثعلب: بالطبع.

قال الأمير الصغير: لكنك ستنتحب!

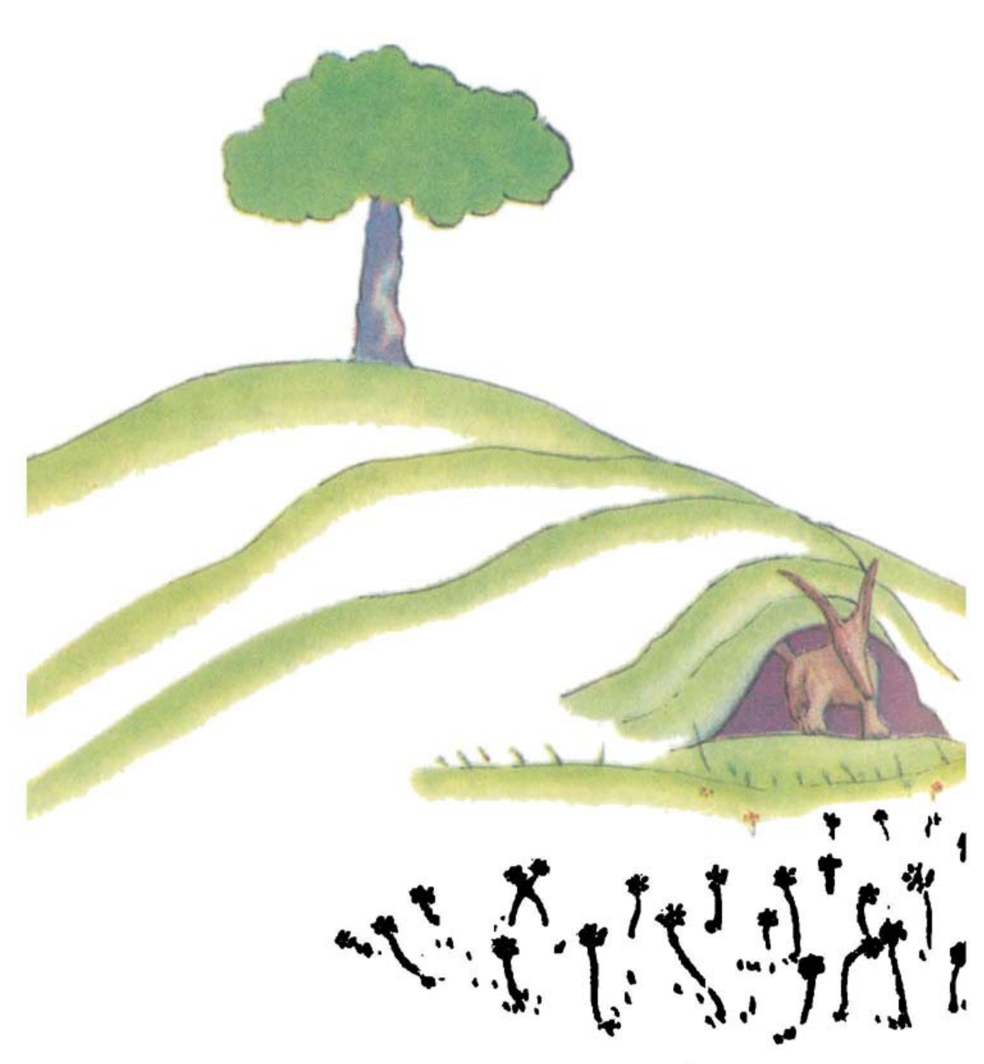
قال الثعلب: بالطبع.

قال الأمير الصغير: إذن، لن تستفيد شيئا!

قال الثعلب: سأستفيد بسبب لون القمح.»

ثم أردف: «اذهب لرؤية الورود ثانية.





«فإذا جئت على الساعة الرابعة بعد الزوال مثلا، سيبدأ الفرح يساورني منذ الثالثة.»

ستدرك أن زهرتك فريدة في هذا الكون. وستعود لتوديعي، فأهديك سرا.»

وعاد الأمير الصغير إلى الورود لكي يراها من جديد، وقال لهن:

«-أنتن لا تشبهن وردتي، بل أنتن لستن شيئا. لم يدجّنكن أحد، ولم تدجنّ أحدا. أنتنّ لا تختلفن عمّا كان عليه ثعلبي. لم يكن سوى ثعلب لا يختلف عن مائة ألف ثعلب غيره، لكنني اتّخذته صديقا، فصار فريدا في الكون.»

وبدا الضيق على الورود، فاسترسل يخاطبهن:

«-أنتنّ جميلات، بيد أنكنّ فارغات. لا يمكن التضحية بالحياة في سبيلكن. إنّ العابر العادي قد يتخيّل أن وردتي شبيهة بكنّ، لكنّها منفردة أهمّ منكنّ جميعا؛ فهي منْ سقيت، وهي منْ وضعتُ تحت الغطاء الزجاجي، ومن حميت بالستار. وهي من خلّصت من اليساريع (باستثناء يسروعين أو ثلاث ستصير فراشات). وهي من سمعتها تشكو أو تتباهى أو حتى تصمت أحيانا. إنها هي وردتي.»

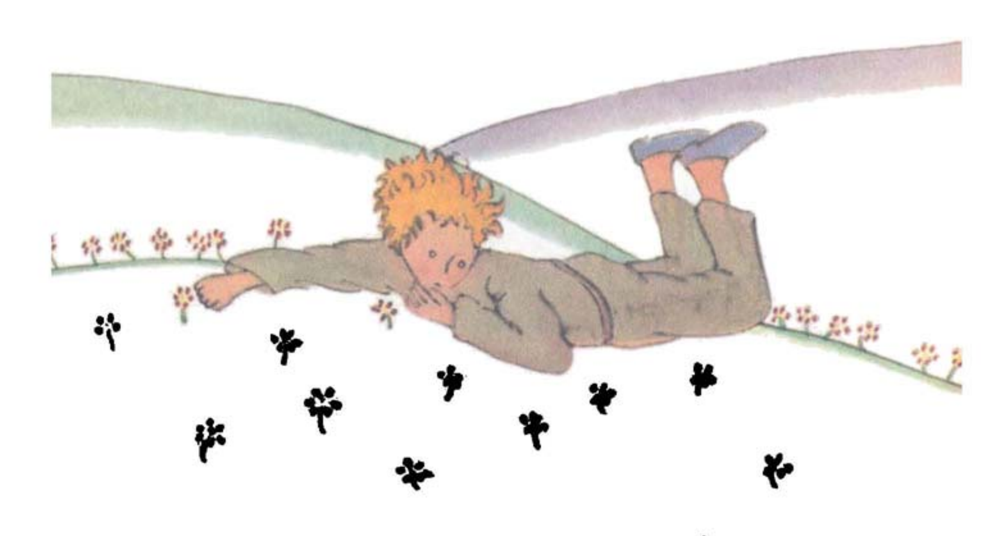
ثم عاد نحو الثعلب وقال:

«-وداعا...

قال الثعلب: وداعا. إليك سري، وهو في غاية البساطة: لا نبصر جيدا إلا بالقلب، والشيء المهمّ لا تراه الأعين.

-الشيء المهمّ لا تراه الأعين، ردّد الأمير الصغير لكي يتذكّر.

قال الثعلب: إن الوقت الذي صرفته من أجل وردتك هو ما أكسبها تلك الأهمية.



راح يبكي وهو مستلق على العشب.

-الوقت الذي صرفت من أجل وردتي... كرّر الأمير الصغير لكي يتذكر.

قال الثعلب: الناس نسوا هذه الحقيقة. فلا تنسها أنت. تصير مسؤولا إلى الأبد على ما دجّنت. فأنت مسؤول عن زهرتك...

كرّر الأمير الصغير لكي يتذكر: أنا مسؤول عن وردتي...»

XXII

قال الأمير الصغير: «صباح الخير.

صباح الخير، قال محوّل سكة الحديد.

سأل الأمير الصغير: ماذا تفعل هنا؟

قال محول السكة: أفرز المسافرين بالآلاف. أحوّل القطارات التي تقلّهم إلى اليمين تارة، وإلى اليسار أخرى.»

وهزّ قطار سريع مُضاء وهادر كالرعد مقصورة تحويل القطارات.

قال الأمير الصغير: «إنهم مستعجلون حقّا. عماذا يبحثون؟

قال محول السكة: حتى سائق القاطرة نفسه يجهل ذلك.»

وهدر في الاتجاه المعاكس قطار سريع آخر مُضاء.

سأل الأمير الصغير: «هل عادوا بهذه السرعة؟

قال محوّل السكة: ليسوا نفس الأشخاص. إن المسافرين يتغيّرون.

قال الأمير الصغير: ألا يشعرون بالرضا حيث كانوا؟

قال محول السكة: لا يشعر الناس بالرضا أبدا حيث هم.»

ودوّى قطار سريع ثالث مُضاء.

استفسر الأمير الصغير: «أيطاردون المسافرين الذين سبقوهم؟
قال محول السكة: إنهم لا يطاردون أحدا. هم ينامون بالداخل أو يتثاءبون. الأطفال وحدهم يضغطون أنوفهم على زجاج النوافذ.
علّق الأمير الصغير: الأطفال وحدهم يعرفون ما يبحثون عنه. يضيعون وقتهم من أجل دمية قماش، فتصير لها أهميّة، حتّى إذا ما نُزعت منهم، بكوا...
قال محوّل السكة: إنهم محظوظون.»



XXIII

قال الأمير الصغير: «صباح الخير.

قال البائع: صباح الخير.»

إنه بائع أقراص مهدئة للعطش، يُبلَع قرص منها في الأسبوع، فتغني عن الشرب.

سأل الأمير الصغير: «لماذا تبيع هذه الأقراص؟

قال البائع: إنها تفيد في اقتصاد الوقت كثيرا. فتبعاً للحسابات التي قام بها الخبراء هي تفيد في اقتصاد ثلاث وخمسين دقيقة في الأسبوع.

-ولماذا تصلح هذه الدقائق الثلاث والخمسون؟

-يفعل بها الناس ما يشاؤون...»

قال الأمير الصغير في نفسه: «لو توفرت لي ثلاث وخمسون دقيقة، وشئت أن أصرفها، لمشيت ببطء نحو إحدى نافورات المياه...»

XXIV

كان قد مضى على العطب الذي أصاب طائرتي في الصحراء ثمانية أيام، وكنت قد سمعت حكاية البائع وأنا أشرب آخر قطرة ماء بقيت من مخزوني. فقلت للأمير الصغير:

«-حسنا! جميلة هي ذكرياتك، لكنني لم أصلح عطب طائرتي بعد، ولم يفضل لي ماء أشربه، وسأشعر أنا أيضا بالسعادة إذا استطعت المشي ببطء نحو نافورة مياه!

-صديقي الثعلب، قال لي...

-أيها الطفل الصغير، لم يعد الأمر يتعلق بالثعلب!
-لماذا؟
-لأننا سنموت عطشا...»
لم يفهم كلامي، فأجابني: «من المهم أن يكون للمرء صديق، حتى وإن كان سيموت. أنا سعيد جدّا، لأنّه كان لي صديق ثعلب...»
وقلت في نفسي: «إنه لا يقدّر الخطر. لم يشعر قطّ بالجوع والعطش، إذ يكفيه قليل من ضوء الشمس...»
غير أنه نظر إلي وأجاب على خواطري قائلا:
«-أشعر بالعطش أنا أيضا... لنبحث عن بئر...»
وبدرت مني إشارة ضجر: من العبث البحث عن بئر في الصحراء المترامية الأطراف بشكل عشوائي. لكنّنا انطلقنا في السير مع ذلك.

وبعد أن مشينا ساعات ونحن صامتين، حلّ الليل، وشرعت النجوم تتلألأ. كنت أنظر إليها كما لو أني في حلم. فقد كنت أشعر بشيء من الحُمَّى بسبب العطش، وكانت كلمات الأمير الصغير تتراقص في ذهني، فسألته:
«-إذن، فأنت أيضا تشعر بالعطش؟»
لكنه لم يجب عن سؤالي، بل قال ببساطة:
«-يمكن أن يكون الماء مفيدا للقلب أيضا...»
لم أفهم جوابه، لكني لزمت الصمت... كنت أعلم أنه لا ينبغي لي أن أستفسره.
كان يشعر بالتعب، فجلس وجلست بقربه. وبعد لحظة صمت، استرسل: «النجوم جميلة بسبب زهرة لا نبصرها...»
أجبته «بالطبع»، ورحت أنظر إلى طيات الرمل تحت القمر في صمت.
أضاف قائلاً: «الصحراء جميلة.»

وكان ذلك صحيحا. طوال عمري أحببت الصحراء. يجلس المرء على كثيب رمل فلا يرى شيئا ولا يسمع شيئا. ومع ذلك ثمّة شيء يُشِعُّ في صمت...

«-إن سرّ جمال الصحراء يكمن في أنها تخفي بئرا في مكان ما...»

وذهلت من اكتشاف إشعاع الرمل العجيب هذا فجأة. لمّا كنت طفلا صغيرا، كنت أسكن منزلا قديما، وتحكي الأسطورة أنّه كان يخفي كنزا. وبطبيعة الحال، لم يحاول أحد قطّ اكتشافه، بل ولم يحاول أحد حتّى البحث عنه. لكنّه كان يسحر كل المنزل. فقد كان منزلي يخفي سرا في قلبه.

وقلت للأمير الصغير:

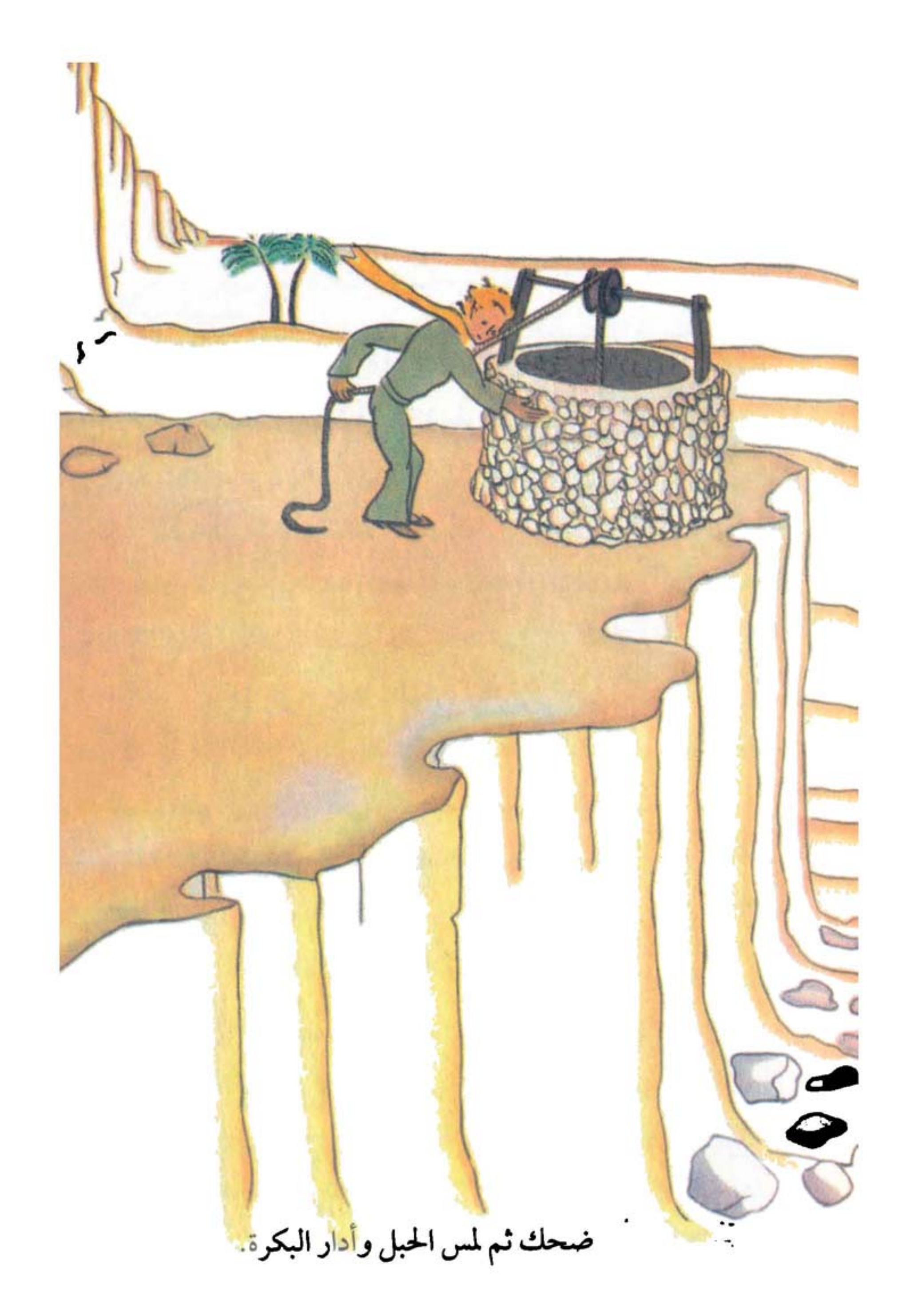
«-أجل، فسواء تعلق الأمر بالمنزل أو بالصحراء أو بالنجوم، ما يصنع جمالها هو وجود شيء خفي فيها!

قال الأمير الصغير: أنا سعيد بأنك تشاطر ثعلبي الرأي.»

نام الأمير الصغير، فأخذته بين ذراعيَّ، وتابعت السير. شعرت بالتأثر. كان يخيّل إليّ أنّني أحمل كنزا هشّا. وتهيّأ لي أن لا شيء أكثر هشاشة منه على الأرض. ورحت أنظر تحت ضوء القمر إلى هذا الجبين الشاحب، وهاتين العنين المغلقتين، وخصلات الشعر هذه التي يهزها الريح، وقلت في نفسي: «ما أراه هنا لا يعدو أن يكون قشرة. أما الأهمّ فلا يُرى...»

ولما لاحت على محياه ابتسامة صغيرة، قلت في نفسي كذلك: «ما يؤثر فيّ بالغ الأثر من هذا الأمير النائم، هو إخلاصه لزهرة، هي صورة وردة تشع بداخله مثل شعلة مصباح، حتى وهو نائم...» وتخيّلته أشدّ هشاشة. إنّ المصابيح ينبغي أن تُحمى: فهبّة ريح قد تطفئها...

وبينما أنا أمشي، اكتشفت بئرا عند مطلع الفجر.



ضحك ثم لمس الحبل وأدار البكرة.

XXV

قال الأمير الصغير:

«-يتزاحم الناس في القطارات السريعة، لكنّهم لا يعرفون عماذا يبحثون، فيضطربون ويدورون في حلقة مفرغة...»

ثم أردف: «لا داعي...»

لم تكن البئر التي بلغناها تشبه الآبار الصحراوية. فالآبار الصحراوية مجرّد ثقوب في الرمل، أما هذه فتشبه بئر القرية، بالرغم من أنّه لا وجود لقرية، وظننت أنّني أحلم. فقلت للأمير الصغير:

«-هذا غريب، كل شيء جاهز: البكرة والدلو والحبل...»

ضحك ثم لمس الحبل وأدار البكرة فصرَّت البكرة كما تصرّ دوّارة ريح قديمة نامت عنها الريح لمدة طويلة. وقال الأمير الصغير:

«-أسمعت، أيقظنا هذه البئر فراحت تغنّي...»

ولم أُرِده أن يبذل جهدا، فقلت له:

«-دعني أفعل ذلك بدلاً منك، هذا ثقيل عليك.»

ببطء رفعت الدلو حتّى حافة البئر، وأرسيته عليها. وظلّ يتردّد في مسمعي نشيد البكرة، ورأيت الشمس وهي تتراقص على صفحة الماء المتماوج. فقال الأمير الصغير: «أنا متعطّش لهذا الماء. ناولني لأشرب...»

وأدركت ما كان يبحث عنه!

رفعت الدلو حتّى شفتيه فشرب وهو مغمض العينين. كان المنظر جميلا.

مثل عيد. ولم يكن هذا الماء مجرّد غذاء. لقد ولد هذا الماء من السير تحت النجوم، من نشيد البكرة، من جهد ساعدَيَّ. كان مفيدا للقلب، مثل هديّة. لمّا كنت طفلا صغيرا، كان ضوء شجرة الميلاد وموسيقى قداس منتصف الليل وعذوبة الابتسامات، كل ذلك كان يخلق إشعاع الهدية التي أحصل عليها في عيد الميلاد.

وقال الأمير الصغير: «أبناء بلدك يغرسون خمسة آلاف وردة في حديقة واحدة... ولا يجدون فيها ما يبحثون عنه...

أجبت: لا يجدون.

فأكمل الأمير الصغير: مع أن ما يبحثون عنه يمكن أن يجدوه في وردة واحدة أو في قليل من الماء...

قلت: بالطبع.»

ثم أردف الأمير الصغير: «لكن العيون عمياء، ينبغي البحث بالقلب.»

كنت قد شربت، وتنفست جيدا. كانت الرمال في مطلع النهار بلون العسل. وكنت مبتهجا بلون العسل هذا أيضا. لماذا كان يلزم أن أشعر بالضيق...

«-ينبغي أن تفي بوعدك، قال لي بهدوء الأمير الصغير الذي جلس من جديد بقربي.

-أي وعد؟

-أنت تعلم... كمامة لخروفي... فأنا مسؤول على تلك الزهرة!»

أخرجت من جيبي محاولاتي الأولى في الرسم. وما كاد الأمير الصغير يراها حتى قال وهو يضحك:

«-أشجار الباوباب التي رسمت تشبه إلى حد ما نبات الكرنب...

-حقّا!»

أنا من كنت فخورا برسوم أشجار الباوباب!

-«ثعلبك... أذناه تشبه إلى حد قرنين... إنها بالغة الطول!»

واسترسل في الضحك.

قلت أنت جائر في حكمك أيّها الولد الصغير، لم أكن أتقن رسم شيء سوى ثعبان البوا من الداخل والخارج.

قال أوه! هذا يكفي. كل الأطفال يستطيعون رسمه.

وخططت إذن كمامة. وشعرت بالضيق وأنا أمدّها له قائلاً:

«-لديك مشاريع أجهلها...»

لكنه لم يجبني، وقال:

«-أتعلم، سقوطي على الأرض... غدا ستحلّ ذكراه السنوية...»

وبعد صمت، استرسل يقول: «سقطتُ قريبا من هنا...»

وامتقع لونه.

وشعرت من جديد بحزن غريب، من دون أن أعرف له سببا. بيد أن سؤالا راودني:

«-ليس صدفة إذن أن كنت تتجوّل وحيدا هكذا يوم لقيتك قبل أسبوع، بعيدا بألف ميل عن أقرب مكان مأهول! كنت عائدا إلى نقطة سقوطك؟»

وزاد امتقاع الأمير، ثم أضفت متردّدا: «ربّما بسبب الذكرى؟...»

وامتقع الأمير من جديد. لم يجب أبدا عن الأسئلة، لكن حين يمتقع لون المرء، فهذا يدل على أن الجواب «نعم»، أليس كذلك؟

قلت أوه! أشعر بالخوف.

لكنّه أجابني:

«-عليك أن تعمل الآن. ينبغي أن تعود لطائرتك. سأنتظرك ها هنا. عد غدا مساء...»

لكن الأمر لم يكن مؤكدا. تذكرت الثعلب. قد نبكي قليلا إذا ما سمحنا لأنفسنا بأن نُدجّن...

XXVI

كان يوجد قرب البئر بقايا جدار قديم من الحجر. فلما عدت من عملي مساء اليوم التالي، لمحت من بعيد أميري الصغير جالسا هناك بالأعلى، وقد دلّى رجليه، وسمعته يتكلم ويقول:

«-أنت لا تذكر إذن؟ ليس هنا تماما!»

وأجابه بلا شك صوت آخر، لأنه ردّ بانفعال:

«-بلى! بلى! في مثل هذا اليوم، لكن ليس في هذا المكان...»

وواصلت سيري نحو الجدار. كنت ما أزال لا أرى ولا أسمع أحدا، ومع ذلك أجاب الأمير الصغير من جديد:

«-... طبعا. سترى أين تبدأ آثاري على الرمل. ما عليك إلا أن تنتظرني. سأصل إلى هناك هذه الليلة.»

كنت على بعد عشرين مترا من الجدار، وكنت ما أزال لا أرى شيئا.

ثم أضاف الأمير الصغير بعد لحظة صمت:

«-ألديك سمّ جيّد؟ أأنت واثق من أنك لن تعذبني طويلا؟»

تسمّرت في مكاني وأنا أشعر بالضيق، لكنّني كنت ما أزال لم أفهم شيئا.

ثم قال: «والآن، انصرف، أريد أن أنزل من جديد!»

خفضت بصري إذن إلى أسفل الجدار، فانتفضت! كان منتصبا باتجاه الأمير الصغير. إنه ثعبان أصفر من النوع الذي يقتلك في ثلاثين ثانية. هممت بأن أجري وأنا أبحث في جيبي عن المسدس، لكن الثعبان سمع ضجتي، فانساب على الرمل بهدوء مثل دفقة ماء تلفظ أنفاسها، ودون أن يضغط نفسه، تسلل بين الأحجار محدثا صوتا معدنيا خفيفا.

وبلغت الجدار في الوقت المناسب، لأتلقى بين ذراعي الأمير الصغير وقد شحب لونه كالثلج. وقلت له:

«-ما هذه الحكاية؟ أصرت الآن تحدّث الثعابين؟»

نزعت شاله الذهبي الأبدي، وبلّلت صدغيه، ثم رويته. وعندئذ لم أعد أجرؤ على مطالبته بشيء. نظر إليّ بجديّة، وطوّق عنقي بذراعيه. كنت أشعر بقلبه يخفق كقلب عصفور يحتضر عندما يُطلق عليه الرصاص. وقال لي:

«-أنا مسرور من توفّقك في العثور على ما كان ينقص طائرتك. سيكون بمقدورك العودة إلى بلدك...

-كيف عرفت!»

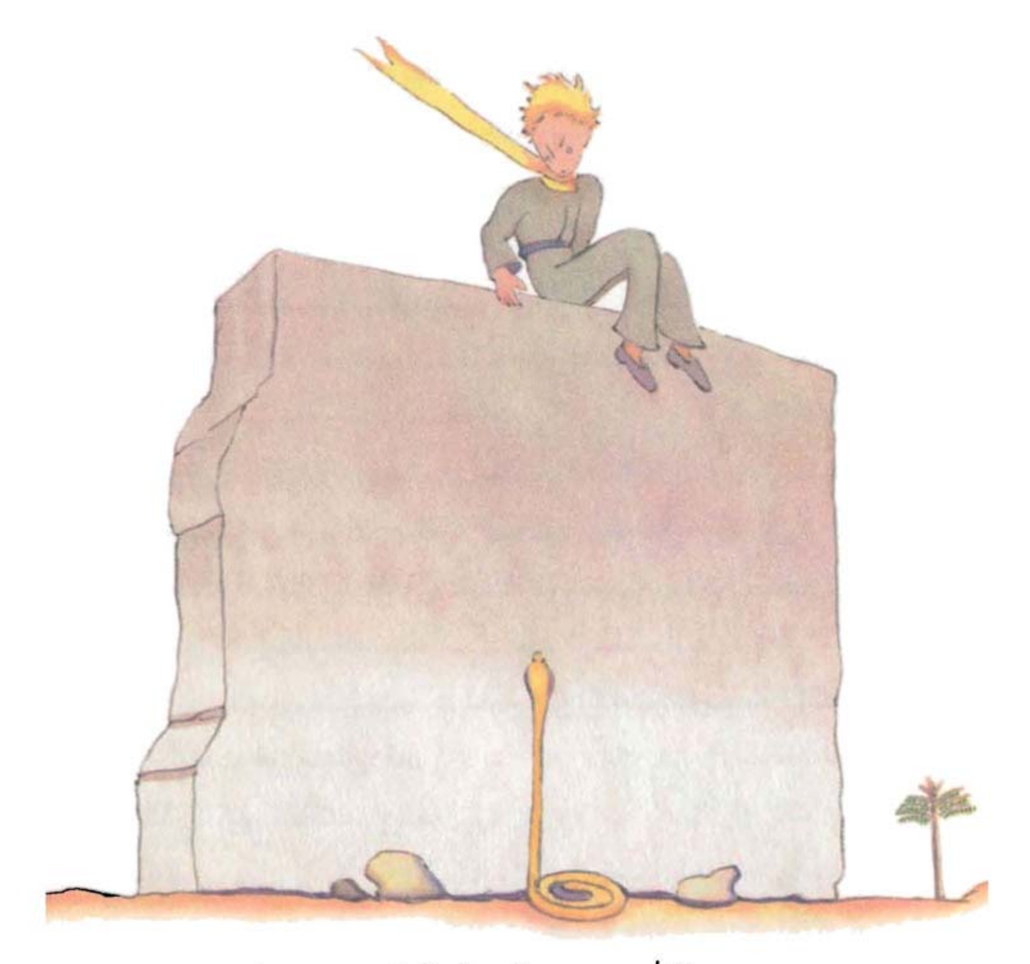
كنت قد جئت خصّيصاً لأخبره بأنّني نجحت، بخلاف كل التوقعات، في مهمتي!

لم يجب على سؤالي بشيء، ولكنه أردف مضيفاً:

«-أنا أيضا سأعود إلى بلدي اليوم...»

ثم قال بكآبة: «إنه بعيد جدا... والطريق صعب...»

شعرت بأن شيئا عجيبا ما يقع. وضممته بين ذراعيّ كطفل صغير،



«والآنَ، انصرف، أريد أن أنزل من جديد!»

غير أنه تهيأ لي بأنه أفلت منّي عموديا في هوّة سحيقة من دون أن أستطيع الإمساك به.

كانت نظراته جادة وتائهة في البعيد:

«-عندي خروفك، وعندي صندوق الخروف، وعندي الكمامة...»

وابتسم بكآبة.

انتظرت طويلا. وشعرت بأنّ الدفء يغمره شيئا فشيئا.

قلت: «أيّها الولد الصغير، أنت خائف...»

كان يشعر بالخوف بطبيعة الحال! لكنه ضحك بهدوء:

«-سأشعر بالخوف أكثر هذا المساء.»

ومن جديد، أحسست بالبرودة من شعوري باستحالة إصلاح ما فسد. وأدركت بأنّني لم أعد أحتمل أن أحرم هذه الضحكة إلى الأبد. فقد كانت بالنسبة لي كنافورة ماء وسط الصحراء.

«-أيها الولد الصغير، أن أسمعك تضحك...»

لكنه قال لي:

«-هذه الليلة ستكون قد مرّت سنة على مجيئي. ستكون نجمتي فوق المكان الذي سقطت به بالضبط السنة الماضية...

-أيها الولد الصغير، أليست حكاية الثعبان والموعد والنجمة، حلما سيئا...»

لكنه لم يجب على سؤالي. قال لي:

«-الشيء المهمّ، لا تبصره العين...

-بالطبع...

-هذا شبيه بحالة الزهرة. إذا كنت تحبّ زهرة توجد على كوكب، سيكون من اللطيف أن تنظر إلى السماء ليلا. كل النجوم ستكون مزهرة.

-بالطبع...

-هذا شبيه بالماء. الماء الذي سقيتنيه كان مثل موسيقى بسبب البكرة والحبل... هل تذكر... كان عذبا.

-بالطبع...

-بالليل، ستنظر إلى النجوم. نجمتي صغيرة للغاية، لا أستطيع أن أدلّك عليها... هذا أفضل. ستكون نجمتي بالنسبة إليك كسائر النجوم. إذن فأنت ستحب النظر لكل النجوم... وستكون كلها لك صديقة. ثم إنني أودّ أن أقدم لك هدية...»

واستمر في الضحك.

«-هيا! أيها الولد الصغير، إنني أحب أن أسمعك تضحك!

-بالطبع ستكون هذه هديتي... سيكون الأمر كما هو الشأن بالنسبة للماء...

-ماذا تقصد؟

-للناس كواكب لا تتشابه. بالنسبة لبعضهم، أولئك الذين يسافرون، النجوم هي بمثابة مرشد لهم. وبالنسبة للبعض الآخر هي لا تعدو أن تكون أضواء خافتة، في حين هي مشكلات بالنسبة لفريق ثالث، وهم العلماء. أما بالنسبة لرجل الأعمال، فقد كانت تمثّل الذهب. لكن كل هذه النجوم تلزم الصمت. وأنت ستملك من النجوم ما لم يملكه أحد...

-ماذا تقصد؟

-لمّا تنظر إلى السماء ليلا، وبما أنني أسكن إحداها، وبما أنني سأكون أضحك في إحداها، سيخيّل إليك إذن كما لو أن كلّ النجوم تضحك. ستكون لك نجوم تعرف كيف تضحك!»

واستمرّ في الضحك.

«-ولمّا ستشعر بالعزاء (إذ ينتهي الأمر بالمرء دائما إلى أن يشعر بالعزاء) ستحسّ بالسرور لمعرفتي، وتكون صديقي للأبد، وستتوق للضحك معي، وستفتح أحيانا نافذتك هكذا لأجل المتعة... وسيندهش زملاؤك حين يرونك تضحك وأنت تنظر للسماء. وعندئذ ستقول لهم: أجل، إن النجوم تضحكني دائما! ، وسيظنونك مجنونا. وسأكون قد عملت لك خدعة سيّئة...»

واسترسل في الضحك.

«-سيكون الأمر كما لو أعطيتك عوض النجوم ركاما من الجلاجل الصغيرة التي تعرف كيف تضحك...»

واصل ضحكه، ثم بدا جاداً وهو يقول: «أتعرف.. هذه الليلة.. لا تأتِ.

قلت: لن أفارقك.

-سأبدو كما لو أنني أتألم... سأبدو كما لو كنت أموت. هكذا هو الأمر. لا تأتِ لترى، لا داعي لذلك...

-لن أفارقك.»

لكنه كان قلقا.

«-أقول لك هذا... بسبب الثعبان أيضا. لا ينبغي أن يلدغك. فالثعابين شريرة... قد تلدغ من أجل المتعة...

-لن أفارقك.»

لكن شيئا ما طمأنه، فقال: «صحيح أنه لا يتبقّى لها سم للذغة الثانية...»

لم أره تلك الليلة ينطلق. لقد هرب من دون ضجيج. ولما نجحت في اللحاق به كان يسير واثقا، بخطى سريعة. واكتفى بأن قال لي:

«-أوه! أنت هنا...»

أمسك بيدي، لكن العذاب كان ما يزال واضحا عليه وقال:

«-لقد أخطأت بمجيئك. سيشقّ عليك. سأبدو كما لو كنت ميّتا، وإن

كان ذلك غير صحيح...»

لذت بالصمت.

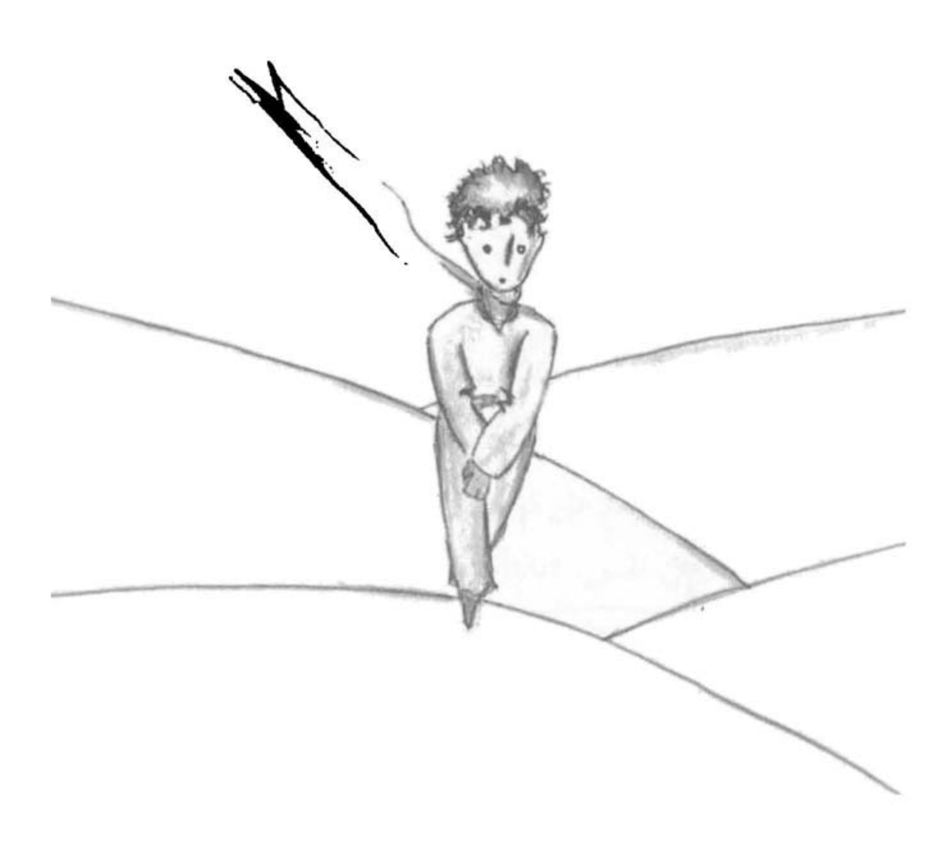
«-أتفهم، إن المسافة بعيدة جدا، وأنا لا أستطيع أن أحمل معي هذا الجسد. إنه بالغ الثقل.»

لذت بالصمت.

«-سيكون مثل قشرة قديمة مهجورة. القشور المهجورة لا تثير الحزن...»

فترت همّته قليلا، لكنه بذل مجهودا وقال:

«-أتعلم، سيكون الأمر لطيفا. أنا أيضا سأنظر إلى النجوم، وكل النجوم ستكون عبارة عن آبار ببكرات صدئة، وكل النجوم ستصبّ لي الماء لأشرب...»



لذت بالصمت.

«-سيكون الأمر مسليا للغاية! سيكون لك أنت خمسمائة مليون جلجل، وسيكون لي أنا خمسمائة مليون نافورة...»

ولاذ هو أيضا بالصمت، لأنه كان يبكي...

«-هنا، دعني أخطو خطوة بمفردي.»

وجلس لأنه كان يشعر بالخوف. ثم أضاف:

«-أتعرف... زهرة... أنا مسؤول عنها! هي في غاية الضعف! وهي على قدر كبير من السذاجة. ليس لها إلا أربع شوكات تافهة تحتمي بها من العالم...»



جلست لأني لم أعد أستطيع الوقوف. وقال:

«-هذا كل شيء...»

تردّد قليلا، ثم نهض، وخطا خطوة. أما أنا فلم أكن أقوى على الحركة.

لم يكن هناك شيء إلا بريقا أصفر قرب كعبه، وبقي متسمّرا للحظة. لم يصرخ. ثم هوى ببطء مثلما تهوي شجرة. ولم يُحدث أي صوت بسبب الرمل.

XXVII

والآن، ها قد مرت ستّ سنوات... ولم يسبق لي قط أن قصصت هذه الحكاية. والرفاق الذين رأوني سُرّوا أيّما سرور بكوني ما زلت حيّا. كنت أشعر بالحزن، ولكني كنت أقول لهم: «إنّه التعب...»

أشعر الآن بشيء من العزاء، أي أنني لا أشعر بالعزاء تماما. بيد أنّي أعرف أنّه عاد إلى كوكبه. لم أعثر على جثته عندما طلع الصباح. لم يكن جسدا بالغ الثقل... وأنا أحب الإنصات للنجوم ليلا. إنها أشبه بخمسمائة مليون جلجل...

لكن ها هو يحدث شيء عجيب، فالكمامة التي رسمتها للأمير الصغير، نسيت أن أضيف لها الحزام الجلدي! ولن يستطيع قط إلصاقها بالخروف، فأتساءل إذن: «ماذا وقع على كوكبه؟ قد يكون الخروف أكل الزهرة...»

أحيانا أقول في نفسي: «بالتأكيد لا! إن الأميرالصغير يحكم إغلاق الغطاء الزجاجي على زهرته كل ليلة، ويراقب خروفه جيدا...»



هوى ببطء مثلما تهوي شجرة.

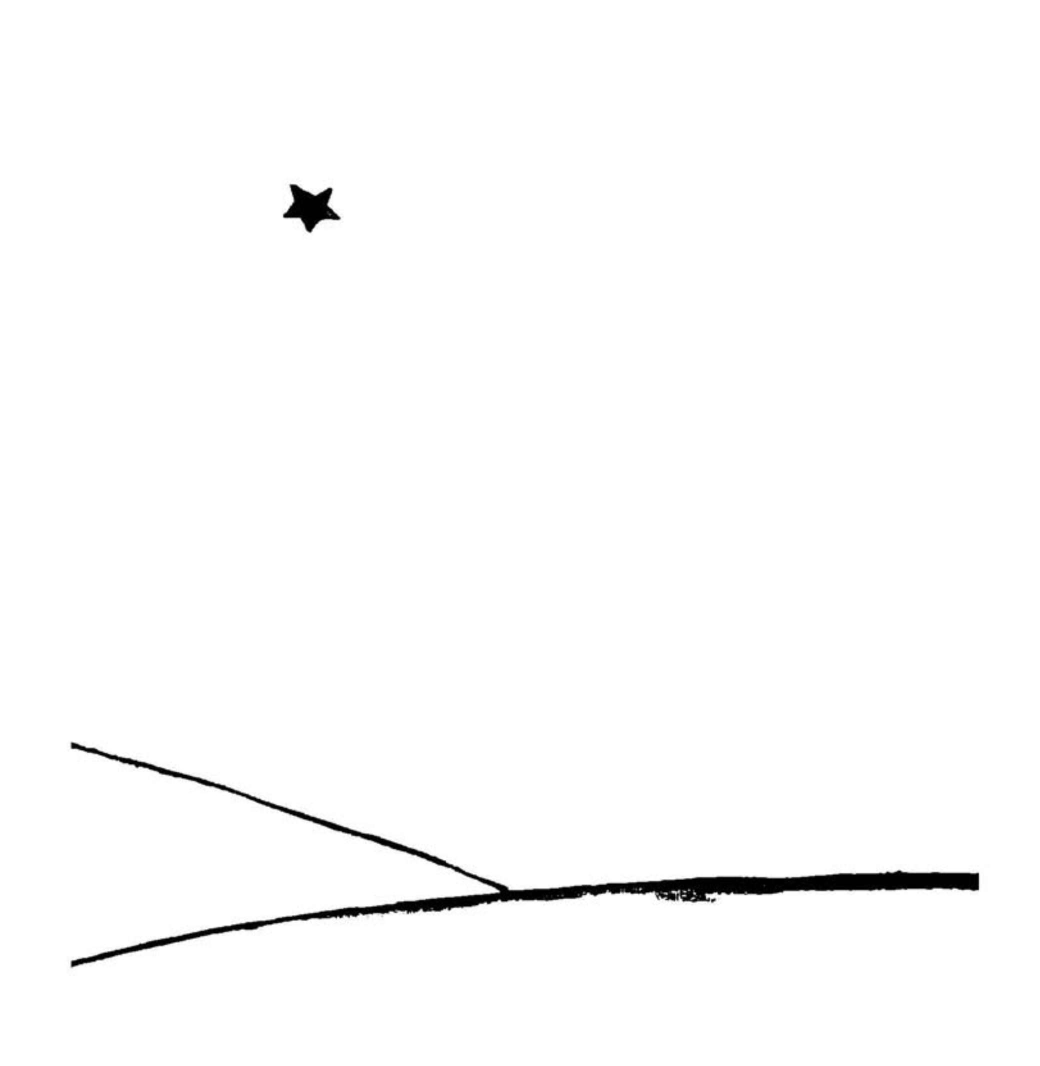
فأشعر بالسعادة إذن، وتضحك كل النجوم بلطف.

وأحيانا أخرى أقول في نفسي: «قد يحدث أن نسهو مرة، ويكون هذا كافيا! قد ينسى ذات مساء وضع الغطاء الزجاجي أو قد يخرج الخروف ليلا من دون ضجيج...» فتتحول كل الجلاجل إلى البكاء!...

وهنا يكمن لغز كبير. بالنسبة إليكم أنتم من تحبّون الأمير الصغير مثلي، الكون لا يظل على حاله إذا قام خروف مجهول موجود في مكان غير معروف بالتهام زهرة، أم لم يقم بذلك...

انظروا إلى السماء وتساءلوا: «أأكل الخروف الزهرة؟ نعم أم لا؟» وسترون كم سيتغير كل شيء...

وليس ثمة راشد واحد بإمكانه أن يفهم مدى أهمية هذا الأمر!



هذا المنظر الطبيعي بالنسبة إلي هو الأجمل والأكثر حزنا في العالم. إنه منظر الصفحة السابقة نفسه، وقد رسمته، مرّة أخرى، لكي أعرضه عليكم. فها هنا ظهر الأمير الصغير، وها هنا أيضا اختفى.

انظروا إلى هذا المنظر بانتباه، حتّى إذا ما سافرتم يوما إلى الصحراء بإفريقيا، كنتم واثقين من التعرف عليه. وإذا حدث ومررتم من هناك، أتوسّل إليكم ألا تُسرعوا، انتظروا قليلا تحت النجمة تماما! فإذا ما قصدكم طفل، وإذا بدا ضاحكا، وكان شعره بلون الذهب، وإذا لم يجب لو سألتموه، فإنكم ستعرفون من يكون. كونوا إذن لطفاء! ولا تتركوني في غاية الحزن: اكتبوا لي بسرعة بأنه رجع...

نبذة عن حياة المؤلف

ولد أنطوان دو سان إكزوبيري بمدينة ليون بفرنسا يوم 29 يونيو من سنة 1900 لأسرة ميسورة. بعد أداء الخدمة العسكرية بسلاح الجو الفرنسي، عمل سنة 1926 بشركة لنقل البريد الجوي، فكان ينقل البريد بالطائرة بين أوروبا وإفريقيا. وابتداء من سنة 1929، عمل بنقل البريد جوّا بأمريكا اللاتينية، وفي هذه الفترة ألّف كتابه الأول «طيران الليل».

وبعد إفلاس شركة نقل البريد الجوي، ومع الحرب العالمية الثانية، انتقل إلى الولايات المتحدة حيث تفرغ للكتابة، فأصدر رواية «الأمير الصغير» سنة 1943، وهو العمل الذي ترجم إلى ما يزيد عن مائة وستين لغة.

وفي سنة 1944 عاد للعمل بالطيران، حيث كان يقوم بمهام استطلاعية جوية. وخلال إحدى رحلاته الاستطلاعية، تعطلت طائرته، فسقط بالبحر الأبيض المتوسط يوم 31 يوليوز 1944.

المترجم

من مواليد 1963 بالمغرب.

حاصل على دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها، تخصص نقد أدبي، من جامعة الحسن الأول بوجدة، المغرب.

صدر له:

- المعين في تقنيات التعبير والتواصل، منشورات مجموعة الباحثين الشباب في اللغة و الآداب، فاس 2004.
- مدخل لقراءة الفرجة المسرحية، دار الأمان، الرباط، 2007.
- حقول سيميائية، إعداد وترجمة، منشورات مجموعة الباحثين الشباب في اللغة والآداب، فاس 2007.
- سيميائيات الأنساق البصرية: أمبرتو إيكو، ترجمة بالاشتراك مع د. محمد أدادا، دار الحوار، سوريا، 2008.
- كتاب الضحك والنسيان: ميلان كانديرا، (ترجمة)، المركز الثقافي العربي، بيروت/ البيضاء، 2009 (حاز جائزة الأطلس الكبير للترجمة التي تمنحها سفارة فرنسا بالمغرب، دورة 2010).
- الهوية: ميلان كانديرا (ترجمة)، المركز الثقافي العربي، بيروت البيضاء، 2010.
- رقصة الوداع: ميلان كانديرا، (ترجمة)، المركز الثقافي العربي، بيروت البيضاء 2010.





مع رسومات المؤلف

المركز الثقافي العربي

ISBN 978-9953-68-520-5

9 789953 685205